مَقَامَاتُ النَّقِيلِي

فِي الِاسْتِعْدَادِ لِلرَّحِيلِ، مِنْ دَارِ الْقَالِ وَالْقِيلِ

تأليف

الدُّكتور: عِصَام الدِّينِ بنِ إِبْرَاهِيمَ النَّقِيلِي

غَفَرَ اللهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَمَشَايِخِهِ وَالْمُسْلِمِينَ آمِين

مَقَامَاتُ النَّقِيلِي

فِي الِاسْتِعْدَادِ لِلرَّحِيلِ، مِنْ دَارِ الْقَالِ وَالْقِيلِ

تأليف

الدُّكتور: عِصَام الدِّينِ بنِ إِبْرَاهِيم النَّقَيلِي

غَفَر اللهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَمَشَايِخِهِ وَالْمُسْلِمِينَ آمِين

يا ناظرًا فيمَا عمدتُ لِسَجْعِه * عذرًا فإنَّ أخَا البصيرةِ يعـــــــذرُ

واعلمْ بأنَّ المرءَ لوْ بلغَ المـــدَى * في العُمرِ لاقَى الموتَ وهوَ مقصِّرُ

فإذا ظفرتَ بزلَّةٍ فافْتحْ لـــــــهَا * بابَ التَّجاوزِ فالتَّجاوزُ أجـــــــدرُ

ومنَ المحالِ بأن نرَى أحدًا حوَى * كُنهَ الكَمالِ وذَا هوَ المتعـــــــذِّرُ

فالنَّقصُ في نفس الطبيعة كـــائنٌ * فبنو الطَّبيعة نقصهم لا يُنـــكرُ([1])

(1) عَلَمُ الدِّينِ الْقَاسِمُ بْنُ أَحْمَدَ الأَنْدَلُسِيُّ ، كتاب "أسنى المقاصد وأعذب الموارد"، أصلها: يا ناظرا فيما عمدتُ لجمعهِ، وغيرتها بقولي: لسجعه، لتوافق المقامات.

أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ}

﴿يونس: ٥٧﴾

عنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رضي الله عنهما، قال:

جاءَ رَجُلانِ مِنَ المَشرِقِ فخَطَبَا، فقال النَّبيُّ ﷺ: إنَّ مِنَ البَيانِ لَسِحرًا[1].

[1] أخرجه البخاري 5146، واللفظ له، ومالك ((الموطأ –رواية أبي مصعب الزهري)) (2074)، وابن حبان (5795).

{بَيْنَ يَدَيِ الْمَقَامَات}

{مِنْ مَلَاهِي الْأَدَب، إِلَى مَوَاعِظِ التَّلَبُّب[1]}

نَشْأَةُ المَقَامَةِ: بَيْنَ الفُكَاهَةِ وَالْكُدْيَة[2]:

– يُعدُّ فنُّ "المقامة" ابتكاراً عبقرياً في النثر العربي، وُلِدَ على يد بديع الزمان الهمذاني: (ت ٣٩٨هـ)، ثم بلغ ذروة نضجه وإحكامه مع القاسم الحريري: (ت ٥١٦هـ).

– كانت المقامة في أصلها تقوم على بطلٍ وهميٍّ "محتال" (مُكْدٍ) يمتلك لغماً من الفصاحة والبيان، يستخدمه في المجالس والأسواق للاحتيال على الناس وطلب المال بأساليب فكاهية وذكية.

اشتهرت المقامات بوجود شخصيَّتين محوريَّتين:

1 – الْبَطَلُ: وهو غالباً رجلٌ ذو دهاءٍ وأيضًا هو لغويٌ بارع، مثل: أبو الفتح الإسكندري، عند الهمذاني، وأبو زيد السروجي، عند الحريري.

2 – الرَّاوِي: وهو الشخص الذي ينقل لنا هذه المغامرات، مثل: عيسى بن هشام، أو الحارث بن همام، وكلاهما شخصيَّتان وهميَّتان يرويان القصص في حال سرد المقامات، مثال: في مقامات الحريري، الراوي الوهمي هو الحارث بن همام، وهو الشخصية التي تتواجد في كل مقامة لتروي لنا ما شاهدته من أعاجيب البطل (أبو زيد السروجي)، من ذلك قول الحريري على لسان راويته الحارث بن هَمام: رَوَى الحارِثُ بنُ هَمّامٍ قال: نَضوتُ عَنّي شَباباً كالنَّصلِ المَصقول، وَطَوَيتُ عُمراً في التَّرحالِ وَالجَوَلانِ الطَّويل، فَأَلقتني غُربَتي إلى صَنعاءَ اليَمَن، وَدَخَلتُها بِخُفٍّ حَنينٍ وَلا مَسكَن...

---

[1] التَّلَبُّب: الحزم، والتهيؤ، وجمع النفس.

[2] الكُدية: أصلها: "الاستجداء" أو "التسوّل"، ولكن ليس أي تسول؛ بل هو تسوّل الأدباء والبلغاء، يُقال: "فلانٌ من أهلِ الكُدْية" أي ممن يتكسبون بلسانهم وبيانهم في المجالس والأسواق... وهي مصطلح أدبي واجتماعي بليغ.

– وكان الهدفُ الأول من هذه المقامات هو "التسلية اللغوية" واستعراض القدرة على السجع الغريب والملح الفكاهية، مع مسحةٍ خفيفة من "العبرة" التي غالباً ما تضيع في زحام الضحك والبيان.

مَقَامَاتُ النَّقيلي...: خُرُوجٌ عَنِ النَّمَط:

– وإيماناً منا بأنَّ الكلمة أمانة، واللغة ميزان، فقد أردنا في هذا العمل (مقامات النقيلي) أن نخرج بفن المقامة من دائرة "التسلية والكدية" إلى رحاب الوعظ والإنابة.

فلم نعد نرى في بطلها شخصاً يبحث عن درهم، بل رأينا بطل القصَّة شخصا حقيقيّا في الواقع، وهميّا في القصَّة؛ وهو ذلك الإنسان الذي يمثل حال الكثيرين في صراعهم مع الغفلة وطول الأمل.

– في هذا العمل: أردتُ استعارة هذا القالب "السكندري[1]" الرصين، ولكن بقلبٍ نابضٍ بالخشية والوعظ.

فلَقد استبدلتُ "فكاهة" أبي زيد السروجي بـ "فجيعة" بطل القصَّة؛ الذي هو المؤلف نفسه، والذي لا يحتال على الناس بلسانه، بل احتال الشيطانُ عليه بغفلته.

– إنَّ المؤلِّف "عصام الدين" بطلٌ خياليٌّ في النص، لكنه حقيقةٌ مُرة في الواقع؛ فهو ليس محتالاً يطلب الدراهم، بل هو "نفسٌ لوامة" تطلب النجاة، فهو ذلك الإنسان الذي أسكرته الدنيا بمزارعها وقيلاتها، فأيقظه الله بـ "كابوسٍ صخري" ليكون عبرةً لمن يقرأ.

– لمَّا كان في مقامات القدماء البطل والرَّاوي وهميَّان، وهما ركنا المقامات، جعلنا هنا الرَّاوي والبطل شخص واحد يحكي قصَّته، وهو وكما قلنا وهمي في المقامات، لكنَّه حقيقيٌّ في الواقع، وزدت على ذلك أن جعلت من نفسي الراوي والبطل في آن واحد، ليستشعر القارئ أحاسيس الراوي البطل، ويعيش مع القصة على أنَّها واقع، فهنا الراوي يتحدَّث عن نفسه فهو بطل

[1] المقصود بـ «القالب السكندري» هو الهيكل الفني الذي ابتكره بديع الزمان الهمذاني (مبتكر فن المقامة)، ونسبه لبطل مقاماته الشهير أبو الفتح الإسكندري.

الرواية، وهو بذاته شخص معلوم، كذلك هو نفسه من كتب مقاماته، حينها يغوص القارئ في أعماق الرواية، أكثر من أن يسمع أديبًا يحدثه عن شخص آخر وهمي وهذا الأخير يحكي قصصا عن بطل وهمي، فهو مفيد في الفكاهة، ولكنَّني أردتُ بهذه المقامات الوعظ، فكان بذلك جعل الراوي هو البطل نفسه، وهو بذاته الكاتب كانت أكثر أثراً في الوجدان...

نُقْلَةٌ نَوْعِيَّة: مِنَ الْكُدْيَةِ إِلَى الْإِنَابَة:

لقد حوّلنا "المقامة" من مجلسٍ للضحك إلى محرابٍ للبكاء، ومن استعراضٍ للبيان إلى استنفارٍ للجنان.

فإذا كان الهمذاني يختم مقامته بضحكة البطل على سذاجة الناس، فإنَّ الرَّاوي البَطل يختم مقامته بشهقة التائب وسجدة المنيب.

وختامًا: فقد اعتمدتُ في هذا البناء على الرجز التام وجزالة السجع المقامي، لنثبت أنَّ اللغة العربية بقدرتها وفخامتها قادرةٌ على أن تكون سيفاً يقطع حبال الغفلة، وبلسماً يداوي جراح الذنوب.

*****

{مقدمة}

إنَّ الحمدَ للهِ، نحمدهُ ونستعينهُ ونستغفرهُ، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنفسنَا ومنْ سيِّئاتِ أعمالنَا، منْ يهدهِ اللهُ فلَا مضلَّ لهُ ومنْ يضللْ فلَا هاديَ لهُ، وأشهدُ أنَّ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وحدهُ لَاشريكَ لهُ وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسوله ﷺ.

{يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقّ تُقَاتِهِ وَلَاتَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}[آل عمران: 102].

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَّاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَّنِسَاءً وَّاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُون بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُم رَقِيبًا}[النساء: 1].

{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُم وَيَغْفِرْلَكُم ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا}[الأحزاب: 70 – 71].

أمَّا بعدُ: "فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ اللهِ تعالَى، وخيرُ الهدي هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرّالأمورِ محدثاتهَا، وكلَّ محدثةٍ بدعةٍ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٍ، وكلَّ ضلالةٍ فِي النَّارِ"[1].

وَبَعْد: فَقَدْ حَكَى عِصَامُ الدِّينِ بنُ إِبْرَاهِيمْ، ذُو التَّقْصِيرِ الأَلِيمْ، وَالرَّاجِي عَفْوَ رَبِّهِ الرَّحِيمْ، قَالَ: لَمَّا رَأَيْتُ أَنْوَارَ البَلَاغَةِ قَدْ خَفَتَتْ مَصَابِيحُهَا، وَأَزْهَارَ الفَصَاحَةِ قَدْ ذَبُلَتْ مَرَاوِيحُهَا[2]، وَعَزَفَ النَّاسُ عَنْ جَزِيلِ الكَلَامْ، إِلَى رَكِيكِ النَّظْمِ وَسَيِّءِ النِّظَامْ، أَرَدْتُ أَنْ أُحْيِيَ فَنّاً كَانَ لِلْعَرَبِ عِمَاداً، وَلِلأَدَبِ مِهَاداً، وَهُوَ فَنُّ المَقَامَاتِ البَدِيعَة، ذَاتِ المَعَانِي الرَّفِيعَة.

وَالمَقَامَةُ: يَرْعَاكَ الله؛ هِيَ المَجْلِسُ الَّذِي تُسَاقُ فِيهِ العِظَات، فِي قَوَالِبِ القَصَصِ وَالحِكَايَات، يُزَيِّنُهَا السَّجْعُ الرَّصِين، وَيُحَلِّيهَا النَّثْرُ الثَّمِين.

---

[1] أما بعدُ فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وإنَّ أفضلَ الهدي هديُ محمدٍ ، وشرَّ الأمورِ مُحدثاتُها، وكلَّ مُحدَثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّارِ أنتكم الساعةُ بغتةً – بُعِثتُ أنا والساعةُ هكذا – صبحَتْكم الساعةُ ومستْكم – أنا أولى بكلِّ مؤمنٍ من نفسِه – من ترك مالًا فلأهلِه – ومن ترك دَيْنا أو ضَياعًا فإليَّ وعليَّ – وأنا وليُّ المؤمنين.

الراوي : جابر بن عبدالله، المصدر :أخرجه النسائي في (المجتبى) (3/ 188)، وأحمد (3/ 310) باختلاف يسير.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، الرقم: 1353.

[2] المَرَاوِيح: جَمْعُ "مِرْوَاح"، وهي في لغة العرب تُطلقُ على الرِّيحِ الطيبةِ التي تَهُبُّ بالرَّائحةِ الزكية (من الرَّوْح والرَّائحة).

ابْتَكَرَ بِنَاءَهَا: بَدِيعُ الزَّمَانِ الهَمَذَانِيّ، فَأَتَى بِمَا عَجِزَتْ عَنْهُ المَعَانِي.

ثُمَّ جَلَا صَدَأَهَا، وَشَادَ فَنَاءَهَا: أَبُو مُحَمَّدٍ الحَرِيرِيّ، فَبَزَّ بِفَصَاحَتِهِ كُلَّ مَارِيٍّ وَجَرِيرِيّ[1]، حَتَّى صَارَتْ مَيْدَاناً لِلسَّابِقِين، وَنِبْرَاساً لِلْمُتَأَدِّبِين.

هَذِي مَقَامَاتٌ زَهَتْ لِلنَّاظِرِ ** صَاغَ الْبَدِيعُ لَفْظَهَا كَالْجَوْهَرِ

وَزَادَهَا الْحَرِيرُ مِنْ بَيَانِهِ** فَأَبْرَقَ الْفَنُّ سَنَا سِنَانِهِ

وَلَمَّا كَانَتْ مَقَامَاتُ مَنْ سَبَقْ، قَدْ غَاصَتْ فِي لُجَجِ الفُكَاهَةِ وَالْمَلَقْ، وَجَرَتْ بَيْنَ أَلَاعِيبِ الْمَجُونِ[2] وَالْحُذَقْ، وَاتَّخَذَتْ مِنْ "أَبِي الْفَتْحِ" وَ"السَّرُوجِيّ" أَبْطَالاً بَيْنَ الْخَيَالِ وَالْوَهْم، لَا لَهُمَا فِي الْحَقِيقَةِ رَسْماً وَلَا عِلْم؛ أَرَدْتُ أَنْ أَسْلُكَ مَسْلَكاً قَصْدِيّاً، وَأَنْهَجَ مَنْهَجاً صِدْقِيّاً.

مَقَامَةُ الْقِدْمِ خَيَالٌ وَمَلَقْ ** لَكِنْ عِصَامُ الدِّينِ[3] بِالْحَقِّ نَطَقْ

لَمْ أَبْنِ قِصَّتِي بِزَيْفٍ مَوْهُومْ ** بَلْ أَرْوِ مَا يَأْتِي بِوَقْعٍ مَحْتُومْ

مَقَامَتِي تَحْكِي حَقِيقَةً وَإِنْ ** أَبْدَيْتُهَا بِشَكْلِ فَنٍّ سْتُبَنْ[4]

ثُمَّ اعْلَمْ رَعَاكَ اللهُ؛ أَنَّ مَا سَطَرْتُهُ فِي هَذِهِ المَقَامَاتْ، وَمَا وَصَفْتُهُ مِنْ أَهْوَالٍ وَسَكَرَاتْ، لَيْسَ رُؤْيَا مَنَامِيَّةً رَأَيْتُهَا، وَلَا أَضْغَاثَ أَحْلَامٍ عَايَنْتُهَا؛ بَلْ هِيَ قِصَّةٌ لِلِاعْتِبَارْ، وَتَمْثِيلٌ لِمَا يَعْقُبُ هَذِهِ الدَّارْ.

---

[1] فَبَزَّ بِفَصَاحَتِهِ كُلَّ مَارِيٍّ وَجَرِيرِيّ: بزَّ: أي: غلب وفاق وسبق، ماريٍّ: نسبة إلى ابن ماريَّة (هو أديب بليغ يُدعى يحيى بن سعيد البصري ت 589هـ) ، وجريري: نسبة إلى جرير.

[2] المجون: المستهتر.

[3] وضعُ اسمي في البيت أو في غيره ليس فخر الشعراء والعياذ بالله من الفخر، بل هو "إشهادٌ"؛ كأنكَ تقول: أنا عصام الدين سأروي الواقع المحتوم، وليس كمن سبقوني يروون قصصًا خياليَّة.

[4] المعنى: أنَّ هذه الحقيقة بالرَّغم من إنِّي جعلتها في شكل مقامات تُروى بين الأدباء إلَّا أنَّها بَيِّنةٌ في سياق هذه المقامات.

فَجَعَلْتُ نَفْسِي فِيهَا بَطَلَ الرِّوَايَةْ، لِأَبْلُغَ بِكَ مَبَالِغَ الهِدَايَةْ؛ فَإِنَّ النَّفْسَ إِذَا سَمِعَتْ خَبَرَ غَيْرِهَا سَلَتْ، وَإِذَا نُسِبَ الخَبَرُ لِلْمُتَكَلِّمِ وَجِلَتْ وَتَخَلَّتْ، فَمَا هِيَ إِلَّا حِيكَةُ ذِهْنٍ بَلِيغْ، لِتَحْذِيرِ كُلِّ صَاحِبِ لَهْوٍ وَتَفْرِيغْ[1]، وَتَقْرِيبِ صُوَرِ الوَعِيدْ، لِكُلِّ قَلْبٍ قَاسٍ كَالحَدِيدْ.

فَجَعَلْتُ كِتَابِي هَذَا فِي خَمْسِ مَقَامَاتٍ مُرْعِدَةْ، لِلْغَافِلِينَ عَنْ أُخْرَاهُمْ مُشَدِّدَةْ؛ فَبَدَأْتُهَا بِذِكْرِ الدُّنْيَا وَغُرُورِهَا، وَمَا يَغُرُّ الْمَرْءَ مِنْ دُورِهَا وَقُصُورِهَا، ثُمَّ ثَنَّيْتُ بِ القَبْرِ وَثُبُورِهْ، ثُمَّ ثَلَّثْتُ بِ الحَشْرِ وَنُشُورِهْ، ثُمَّ خَتَمْتُهَا بِ التَّوْبَةِ النَّصُوحْ، ثُمَّ النُصْحُ لِلْعَاقِلِ الطَّمُوحْ.

فَدُونَكَ يَا صَاحِ هَذِهِ النُّقَيْلِيَّاتْ، فِيهَا مِنَ الهَوْلِ بَاقِيَاتٌ وَمُبْقِيَاتْ، فَاشْدُدْ بِهَا يَدَيْكْ، وَأَقْبِلْ بِقَلْبِكَ إِلَيْهَا وَأُذُنَيْكْ، لَعَلَّكَ تَسْتَفِيقُ مِنْ مَنَامِكْ، قَبْلَ أَنْ تُصْرَعَ بِحِمَامِكْ[2].

لَيْسَتْ بِرُؤْيَةٍ أَتَتْ مَنَامِيَا ** وَلَا خَيَالٌ طَافَ فِي أَحْلَامِيَا

لَكِنَّهَا قِصَّةُ مَنْ يَعْتَبِرُ ** مِمَّا يَلِي هَذِي الدِّيَارَ يُخْبِرُ

جَعَلْتُ نَفْسِي صَاحِبًا لِذَا الْخَبَرْ ** لِيَزْدَجِرْ ذَا سَمْعٍ أَوْ لَهُ بَصَرْ

فَالنَّفْسُ تَهْوَى قِصَّةَ الْأَغْرَابِ ** وَتَرْهَبُ الْأَخْبَارَ عَنْ أَقْرَابِ

خَمْسُ مَقَامَاتٍ لَهَا إِرْعَادُ ** لِمَنْ تَمَادَى لَا لَهُ تِعْدَادُ

أَوَّلُهَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا غَرَرْ ** ثَانِيهِمَا قَبْرٌ وَمِمَّا يُنْتَظَرْ

ثُمَّ نُشُورُ الْحَشْرِ بَعْدَ الْمَوْتِ ** وَثَوْبُ نُصْحٌ لِقَبْلِ الْفَوْتِ

فَدُونَكُمْ نُقَيْلِيَاتُ الْواعِظِ ** هِيَ النَّجَاةُ لِلَّبِيبِ الْحَافِظِ

فَاقْبِلْ بِلُبٍّ قَبْلَ أَنْ تَنْصَرِعَا ** وَانْدَمْ عَلَى مَا فَاتَ حَتَّى تَرْجِعَا

وكتب:

الدكتور: عصام الدين إبراهيم النّقيلي

[1] التَّفْرِيغ: كلمةٌ بليغةٌ لِوصفِ حالِ لاهِي القلْب؛ فهو "فارِغٌ" من مَعاني الإنابة، أو هو "مُفرَّغٌ" لِلشهواتِ فقط.

[2] الحمام: هو الموت.

{مُلَاحَظَةٌ مَنْهَجِيَّةٌ}

{فِي تَأْصِيلِ المَقَامَةِ المَرْوِيَّةْ}

اعْلَمْ رَعَاكَ اللهُ؛ أَنَّ المَقَامَةَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ حِكَايَة، بَلْ هِيَ عِلْمٌ لَهُ رَايَة، وَفَنٌّ مُسْتَقِلٌّ فِي الغَايَة.

فَهِيَ لِلسِّانِ صِقَالْ، وَلِلْبَيَانِ عِقَالْ، وَهِيَ وِعَاءٌ لِلْعُلُومِ اللُّغَوِيَّة، وَخِزَانَةٌ لِلْمَعَانِي النَّحْوِيَّةِ القَوِيَّة.

أَمَّا مَوْقِفُ الشَّرْعِ الشَّرِيفْ، مِنْ هَذَا الفَنِّ الْمَاتِعِ اللَّطِيفْ؛ فَقَدْ جَعَلَهُ مَحْمُوداً، وَصَاحِبُهُ بِالْخَيرِ مَوْعُودًا، إِذَا كَانَ لِلْحَقِّ رَفِيقاً، وَعَنِ البَاطِلِ مَعْزُولاً وَلَيْسَ طَرِيقاً.

فَلَمَّا كَانَتْ مَقَامَاتِي هَذِهِ لِلْمَوْعِظَةِ وَالتَّذْكِيرْ، لَا لِلْخَدِيعَةِ وَالتَّزْوِيرْ؛ صَارَتْ عِبَادَةً بِحَرْفْ، وَغَايَةً فِي الظُّرْفْ، نَرْجُوا بِهَا الْأُجُورْ، مِنْ رَبِّنَا الْغَفُورْ، فَاسْتَعْمَلْتُ سِحْرَ الْبَيَانِ وَالْكَلَامْ، لِقِيَادَةِ الخَلْقِ إِلَى دَارِ السَّلَامْ، وَتَحْذِيرِهِمْ مِنْ مَزَالِقِ الآثَامْ، فَلَيْتَ قَوْمِي يَسْتَغْفِرُوا لِلْعِصَامْ.

فَنُّ الْمَقَامَاتِ عَرِيقُ الْأَصْلِ ** صَيَّرْتُهُ لِلْوَعْظِ خَيْرُ الْفَضْلِ

وِعَاءُ هَذِي الضَّادِ لِاسْتِبْيَانِ ** وَمَنْهَجُ النَّجَاةِ لِلْإِنْسَانِ

*****

{الْمَقَامَةُ الْأُولَى}

{المَقَامَةُ الغَرَّارَةْ، فِي فِتْنَةِ الدَّارِ الغَدَّارَةْ}

هَذِي الدُّنَا كَاذِبَةٌ غَرَّارَهْ** فَاحْذَرْ أَخِي فَإِنَّهَا غَدَّارَهْ
تَزْهُوا بِأَلْوَانٍ لِكُلِّ غَافِلِ ** لَكِنَّهَا فِي أَصْلِهَا بَتَّارَهْ

حَكَى عِصَامُ الدِّينِ بْنُ إِبْرَاهِيم النَّقَيْلِي التَّائِبْ، القَالِعُ عَنِ الذُّنُوبِ وَالمَعَائِبْ، قَالَ:

لَمَّا غَرَّتْنِي الدُّنْيَا بِزُخْرُفِها، ومَشَيْتُ فِي مَوَاكِبِ لَذَّاتِهَا، وَأَنْسَانِي الْهَوَى سَبَبَ وُجُودِي، وَغَرَّنِي الشَّيْطَانُ بِالأَمَانِي وَالوُعُودِ، فَقَدْ كُنْتُ أَرَى القُصُورَ فَيُبْهِرُنِي بَهَاؤُهَا، وَأَلْبَسُ الدِّيبَاجَ فَيَسْحَرُنِي سَنَاؤُهَا، وَخِلْتُ أَنَّ الأَيَّامَ طَوْعُ بَنَانِي، وَأَنَّ الزَّمَانَ قَدْ نَسِيَ عِنْوَانِي، فَأَسْرَفْتُ فِي المَلَاذِّ وَالشَّهَوَاتْ، وَغَفَلْتُ عَنِ انْصِرَامِ السَّاعَاتْ، وَتَبَحَّرْتُ فِي الْمَعَاصِي دَونَ مَانِعْ، بِسَهَرَاتٍ مَعَ الْقَيْنَاتِ فِي الْمَزَارِعْ، فَجُورًا وَفِسْقًا مَالَهُ مِنْ رَادِعْ، فَجَمَعْتُ بَيْنَ صَفْقِ الرَّاحْ[1]، وَغَفْلَةِ الغُدُوِّ وَالرَّوَاحْ، وَظَنَنْتُ أَنَّ لَيْلِي لَيْسَ لَهُ صَبَاحْ!

فَكُنْتُ أَتَخَيَّرُ مِنَ المَزَارِعِ أَنْضَرَهَا، وَمِنَ المَجَالِسِ أَفْخَرَهَا، حَيْثُ تَمِيسُ الأَشْجَارْ[2]، وَتَعْزِفُ الأَطْيَارْ، وَتَجْرِي مِيَاهُ الأَنْهَارْ! فَكُنْتُ أَتَصَدَّرُ المَحَافِلْ، وَأَسْتَهْزِئُ بِالقَافِلْ، وَأَقُولُ لِنُدَمَائِي وَهُمْ حَوْلِي عُكُوفْ: «تَمَتَّعُوا فَمَا لِلذَّاتِنَا كُسُوفْ، وَلَا لِعَيْشِنَا عُصُوفْ[3]!» فَكَمْ مِنْ لَيْلَةٍ قَضَيْتُهَا فِي الطَّرَبْ، وَقَلْبِي عَنْ ذِكْرِ اللهِ فِي هَرَبْ، أَظُنُّ أَنَّ العِزَّ دَائِمْ، وَأَنَّ القَدَرَ عَنِّي نَائِمْ.

---

[1] الراح: اسم من أسماء الخمر، والصفق الضرب الذي يُحدث صوتًا، والمعنَى: جمعت بين ضرب كؤوس الخمر ببعضها مع الندماء.

[2] تَمِيسُ الأَشْجَار: التمايل والتبختر: "مَاسَ" الغصنُ إذا تمايل يميناً وشمالاً بلين ورقة. وفي مقامتك، يصور هذا التعبير مشهد المزرعة الغنّاء حيث الأشجار نضرة، تداعبها النسمات فتمايل أغصانها كأنها تتبختر بجمالها أمامك.

[3] العصوف: مصدر عصفَ، من عصفت الرّيح، والمعنى: أن عيشنا مستقر وهادئ، لا تهزه رياح القدر ولا تنغصه كوارث الدهر، وهو من باب. الغرور بالأمان الزائف.

فَأَمَرْتُ بِالفُرُشِ الوَثِيرَةْ، وَالمَآكِلِ الكَثِيرَةْ، وَجَعَلْتُ المَالَ خَادِمِي، وَالشَّيْطَانُ نَدِيمِي ونَادِمِي[1]، وَنَسِيتُ أَنَّ الأَنْفَاسَ مَعْدُودَةْ، وَأَنَّ الأَجْسَادَ لِلدُّودِ مَوْعُودَةْ.

فَأَقَمْتُ بَيْنَ الكَرْمِ وَالقُطُوفْ، وَدَانَتْ لِيَ الأَمَانِي بِصُنُوفِ الظُّروف[2]، فَكُنْتُ إِذَا اشْتَهَيْتُ نِلْت، وَإِذَا أَمَرْتُ فَمَا خِلْتُ أَنِّي عَنِ العِزِّ مِلْت! فَجَعَلْتُ الرَّاحَ[3] لِي دَيْدَنًا، وَالغَطْرَسَةَ لِقَلْبِي مَوْطِنًا، فَمَا رَأَيْتُ فَوْقِي كَبِيرًا، وَلَا حَسِبْتُ لِحَالِي تَغْيِيرًا.

فَكَمْ بَنَيْتُ مِنَ الآمَالِ قُصُورًا، وَكَمْ حَفَرْتُ فِي بَحْرِ الأَوْهَامِ بُحُورًا! فَصِرْتُ كَمَنْ سَكِرَ بِلَا خَمْر، وَغَابَ عَنْ رُؤْيَةِ نِهَايَةِ الأَمْر، أُقَلِّبُ الطَّرْفَ فِي قَيْنَاتِي وَخُدْمِي، وَأَظُنُّ أَنَّ الخُلُودَ قَيْدُ اسْمِي! فَمَا نَفَعَنِي ذَكَاءْ، وَلَا دَفَعَ عَنِّي ثَرَاءْ، بَلْ زَادَنِي فِي الطُّغْيَانِ مَدَى، وَأَوْرَدَنِي مَوَارِدَ الرَّدَى.

وَبَيْنَمَا أَنَا فِي سَكْرَةِ هَذَا الفُجُورْ، وَقَلْبِي بِغُرُورِ العَاجِلَةِ مَسْحُورْ، إِذَا بِهَاتِفٍ يَصِيحُ بِي مِنْ بَعِيدْ، وَصَوْتُهُ يَهُزُّ القَلْبَ العَنِيدْ:

أَيَا نُقَيْلِي؛ أَبِهَذَا تَقْضِي العُمُرْ؟ وَعَنْ حِيَاضِ المَنَايَا تَسْتَتِرْ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ المَوْتَ يَرْصُدُ الخُطَى؟ وَأَنَّ الثَّرَى لِلْأَجْسَادِ هُوَ المِغْطَى؟

فَمَا أَعَرْتُهُ مِنْ بَالِي، وَاسْتَمْرَرْتُ فِي عِزَّةٍ لَا أُبَالِي، وَطَالَت سَهَرَاتُ اللَّيَالِي، فَاسْتَحْبَبْتُ العَمَى عَلَى الهُدَى، وَبِعْتُ الآخِرَةَ بِثَمَنٍ رَدَى، وَقُلْتُ لِنَفْسِي: دُونِي وَبَيْنَ المَنُونِ مَدَى! فَأَمْعَنْتُ فِي غَيِّي، وَأَسْرَفْتُ فِي لَيِّي[4]، حَتَّى أَحَطْتُ نَفْسِي بِالأَسْوَارْ، وَظَنَنْتُ أَنِّي بِمَنْأًى عَنِ الأَقْدَارْ.

فَمَا زِلْتُ أُقَارِعُ الكُؤُوسْ، وَأَبِيعُ لِلشَّيْطَانِ النُّفُوسْ، فَمَا تَوَانَيْتُ عَنْ مُنْكَرٍ إِلَّا فَعَلْتُهْ، وَمَا لَهَذَا

---

[1] النديم: هو المشارك في الخمر أو الساقي، ونادمي: أردت أنَّ الشيطان جعل البطل يندم.

[2] الكرم: هو العنب، والقطوف: هي الثمرة التي حان قطافها، والظروف جمع ظرف: وهو الوعاء، القصد البلاغي: (وَدَانَتْ لِيَ الأَمَانِي بِصُنُوفِ الظُّرُوفْ)؛ أي أنَّ كل ما كنتَ تتمنّاه من ملاذّ الدنيا قد أتاك "مُعلّباً" ومُهيأً في شتّى أنواع الأوعية والأشكال، والدنيا قدّمت لك شهواتها في "ظروف" (أوانٍ) من ذهب وفضة وفخار، فكنتَ تختار منها ما تشاء.

[3] الراح: الخمر.

[4] الليُّ: هو الإعوجاج، ويأتي بمعنى: التسويف، فعلى الأول المعنى: أسرفت في اعوجاجي ولجاجي، وعلى الثاني: أسرفت في التسويف بالتوبة.

الآبِق[1] مَا يَمْنَعُهُ، فَصَمَمْتُ عَنِ النَّاصِحِ أُذُنِي، وَجَعَلْتُ المَعْصِيَةَ دَيْدَنِي وَفَنِّي، وَقُلْتُ: مَنْ أَشَدُّ مِنِّي مَنَعَةً وَبَأْسًا؟ وَأَطْوَلُ مِنِّي فِي المَلَاذِّ أَنْفَاسًا؟ فَاسْتَوْلَى عَلَيَّ رَانُ القُلُوبْ، وَأَنْسَانِي شُؤْمَ الكُرُوبْ، حَتَّى كُنْتُ كَمَنْ يَحْفِرُ لِحَدَهُ بِيَدِهْ، وَيُضِيعُ يَوْمَهُ فِي انْتِظَارِ غَدِهْ، وَكُنْتُ تَارَةً أَذْكُرُ الْهُدَى فَأَنْحَنِي، لَكِنَّنِي سُرْعَانَ مَا أَنْثَنِي، فَكُنْتُ بَيْنَ لَمْعَةِ ضَمِيرٍ تَخْبُو، وَنَزْوَةِ شَيْطَانٍ تَرْبُو، أَقُومُ بِخُطْوَةٍ نَحْوَ المَتَابْ، ثُمَّ أَنْكُصُ عَلَى عَقِبِي لِلصِّعَابْ! فَمَا انْحَنَيْتُ إِلاَّ لِأَزْدَادَ طُغْيَانًا، وَمَا ذَكَرْتُ الهُدَى إِلاَّ لِأُنْسِيَهُ نِسْيَانًا، حَتَّى كَأَنَّ القَلْبَ صَخْرٌ صَلِدْ، لَا يَلِينُ لِوَعْدٍ وَلَا بِوَعِيدٍ يَرْتَعِدْ!

فَصِرْتُ أُسَوِّفُ التَّوْبَةَ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمْ، وَأَغْرَقُ فِي لُجَّةِ الغَفْلَةِ كَأَنِّي فِي نَوْمْ! أَقُولُ: «غَدًا أُصَلِّي، وَغَدًا عَنِ المَعَاصِي أُخَلِّي»، وَمَا عَلِمْتُ أَنَّ «غَدًا» لِلْمَنَايَا مِلْك، وَأَنَّ التَّسْوِيفَ لِلأَعْمَارِ هَلْك.

فَكَمْ مِنْ رَمَضَانٍ مَرَّ وَأَنَا فِي لَهْوِي، وَكَمْ مِنْ جُمُعَةٍ انْقَضَتْ وَأَنَا فِي زَهْوِي! كُنْتُ أَرَى جَنَائِزَ الشَّبَابِ تُزَفُّ إِلَى التُّرَابْ، فَأَقُولُ: «مَا زَالَ لِي فِي الدُّنْيَا مَتَابْ»، حَتَّى صَارَ ذِكْرُ المَوْتِ عِنْدِي كَأُسْطُورَةْ، وَرُؤْيَةُ القُبُورِ نُزْهَةً مَحْظُورَةْ.

فَأَمْعَنْتُ فِي الِاسْتِخْفَافِ بِالذَّنْب، وَقَسَوْتُ حَتَّى نُزِعَ الرُّعْبُ مِنَ القَلْب! فَمَا عُدْتُ أَفْرَقُ بَيْنَ حَلَالٍ وَحَرَامْ، وَلَا أَخْشَى مَصِيرًا بَيْنَ الرَّغَامْ[2]، بَلْ ظَلَلْتُ أَمُدُّ لِلشَّيْطَانِ يَدِي، وَأَبْنِي لِغَدِي مَا يَهْدِمُ جَسَدِي.

فَكُنْتُ إِذَا لَاحَ فِي مَفْرِقِي شَيْبٌ نَتَفْتُهْ، وَإِذَا نَادَانِي نَاصِحٌ عَنِ الغَيِّ عَنَّفْتُهْ! وَقُلْتُ لِقَلْبِي: «مَا زَالَ الصِّبَا فِينَا فَتِيًّا، وَمَا كَانَ عَيْشُنَا إِلَّا بَهِيًّا!» فَأَوْهَمْتُ نَفْسِي بِأَنَّ المَنُونَ لِلْآخَرِينْ، وَأَنَّنِي فِي حِصْنٍ مَنِيعٍ مِنَ الغَابِرِينْ.

فَكَمْ لَيْلَةٍ بَيْنَ الكَرْمِ وَالعِنَبْ، وَقَدْ غَابَ عَنِّي لَهَبُ العَتَبْ! أَنْظُرُ إِلَى صَحْبِي وخَدَمِي، فَأَظُنُّ أَنَّ العِزَّ لَنْ يَنْحَنِي مِنْ قَدَمِي! فَصِرْتُ كَالسَّاهِي فِي لُجَّةِ البَحْر، لَا يَرَى المَوْجَ وَهُوَ يَدْنُو مِنَ الْقَهْر.

---

[1] الآبق: العبد العاق أو الهارب من سيّده.

[2] الرَّغام: هو التراب، والمعنى، ما عدتُ أخاف مصيري حين أوضع تحت الرغام (التراب)

فَجَمَعْتُ بَيْنَ خُيَلَاءِ الثِّيَاب، وَإِضَاعَةِ الصَّوَاب، وَجَعَلْتُ المَالَ رَبًّا يُعْبَدْ، وَظَنَنْتُ أَنَّ نَعِيمِي لَنْ يَنْفَدْ! حَتَّى صَارَ الذَّنْبُ عِنْدِي كَالذُّبَابْ، لَا أَخْشَى لَهُ حِسَابًا وَلَا عِقَابْ، بَلْ ظَلَلْتُ فِي بَحْرِ الأَمَانِي أَعُومْ، وَعَنْ حَقِيقَةِ الرَّحِيلِ أَصُومْ.

وَبَيْنَمَا أَنَا فِي هَذَا المَدِّ وَالجَزْر، وَالعُمُرُ يَنْفَدُ وَلَا بَقِيَّةَ لِي مِنَ الذُّخْر، إِذَا بِيَدِ القَدَرِ تَمْتَدُّ لِتَقْطَعَ الأَوْتَارْ، وَتُوقِظَ الغَافِلَ مِنْ سَكْرَةِ الدَّارْ...

حَتَّى إِذَا بَلَغَ الطُّغْيَانُ مَدَاهْ، وَنَسِيَ العَبْدُ مَوْلَاهْ، وَإِذَا بِي فِي لَيْلَةٍ لَيْلَاءْ[1]، لَا نُورَ فِيهَا وَلَا ضِيَاءْ، أَحْسَسْتُ بِبَرْدٍ يَسْرِي فِي الأَطْرَافْ، وَرُعْبٍ لَا تُدْرِكُهُ الأَوْصَافْ، وَأَحْسَسْتُ بِالنُّعَاسْ، وَضَاقَ بِيَ الْإِحْسَاسْ، وَتَقَطَّعَتِ الْأَنْفَاسْ، فَذَهَبْتُ لِأَغْتَفِي، لَعَلِّي فِي الصَّبَاحِ أَعْتَفِي، فَوَضَعْتُ جَنْبِي عَلَى الوِهَادْ[2]، وَظَنَنْتُ أَنِّي سَأَلْقَى الرُّقَادْ، فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ أَغْمَضْتُ العَيْن، حَتَّى انْقَطَعَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ العَالَمَيْن.

فَلَا صَبَاحٌ أَسْفَرْ، وَلَا ضِيَاءٌ بَشَّرْ، بَلْ صَمْتٌ رَهِيبْ، وَمَكَانٌ غَرِيبْ، وَجَسَدٌ بَيْنَ الثَّرَى سَلِيبْ! فَنَادَيْتُ: أَيْنَ المَزَارِعُ وَالقَيْنَاتْ؟ وَأَيْنَ اللَّذَّاتُ وَالسَّهَرَاتْ؟ فَلَمْ أَجِدْ إِلَّا جُدْرَانَ لَحْدِي، وَمَا قَدَّمْتُهُ لِنَفْسِي مِنْ بَعْدِي.

غَرَّتْنِيَ الدُّنْيَا بِزَيْفِ زَهْرَةِ ** نَسِيتُ أَنَّ المَوْتَ رِدْفَ خُطْوَتِي

فَصِرْتُ مِنْ بَعْدِ الْقُصُورِ لِلثَّرَى ** يَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تُفِيدُ حَسْرَتِي

وَالْقَبْرُ صَارَ مَوْطِناً لِغُرْبَتِي ** وَبِتُّ فِيهِ رَهْنَ ضِيقِ حُفْرَتِي

ضَاعَ الْأَنِيسُ وَانْقَطَعْتُ لِلْجَزَا ** يَا رَبِّ سِتْراً حِينَ يَوْمِ بِعْثَتِي

*****

[1] اللَّيْلَاء: هي صِفةٌ مُشتقةٌ من "اللَّيل"، وتُستخدم لـ "التوكيد

يقولُ العرب: (لَيْلَةٌ لَيْلَاء) كما يقولون: (يَوْمٌ أَيْوَم) و(ظِلٌّ ظَلِيل)؛ أي ليلةٌ بَلغتِ الغايةَ في صِفاتِ اللَّيلِ من سَوادٍ حَالِكٍ وَظُلمةٍ تَامَّة.

[2] تُستخدم أحياناً لوصف الفراش المنخفض الوثير، فكأنك وضعت جنبك على فراشك (الوهاد) تظنه راحة، فإذا هو قبرك المنخفض.

{الْمَقَامَةُ الثَّانِيَةُ}

{المَقَامَةُ اللَّحدِيَّةْ، فِي أَهْوَالِ البَرْزَخِ وَالوَحْدِيَّةْ}

فِي الْقَبْرِ أَهْوَالٌ وَضِيقُ مَهْجَعِ ** فَافْطَنْ أَخِي فَمَا لَنَا مِنْ مَرْجَعِ
تَهَجَّرَتْ دُنْيَاكَ، وَاسْتَقْرَرْتَ فِي ** ثَرًى، وَخَلَّوْكَ بِقَبْرٍ يَفْجَعِ

حَكَى عِصَامُ الدِّينِ بنُ إِبْرَاهِيم النَّقِيلِي، القَائِمُ بَيْنَ يَدَيِ المَلِكِ الجَلِيل، قَالَ:

بَعْدَمَا أَغْمَضْتُ العَيْنَ لِأَعْتَفِي[1]، وَظَنَنْتُ أَنِّي مِنَ الكُرُوبِ سَأَكْتَفِي، فَمَا إِنْ أَتَانِيَ النُعَاسْ، حَتَّى ذَهَبَ عنِّيَ الْإِحْسَاسْ، وَظَنَنْتُ أَنِّي فِي النَّهَارِ أَسْتَفِيقْ، وَأَبْرَأُ بَعْدَ هَذَا النَّوْمِ الْعَمِيقْ، لَكِن مَا اسْتَفَقْتُ مِنْ غَفْوَتِي، وَلَا انْتَهَيْتُ مِنْ خَلْوَتِي، حَتَّى وَجَدْتُ النَّفْسَ فِي ضِيقٍ شَدِيدْ، وَظُلْمَةٍ لَا يَنْفُذُ إِلَيْهَا حَدِيدْ! فَلَمَسْتُ يَمِينِي فَإِذَا هُوَ تُرَابْ، وَلَمَسْتُ شِمَالِي فَإِذَا هُوَ خَرَابْ، وَنَادَيْتُ صَحْبِي فَمَا جَاءَنِي جَوَابْ.

أَيْنَ الْقَيْنَاتْ؟ أَيْنَ مَا كَانَ مِنَ السَّهَرَاتْ؟ أَيْنَ أَنَا؟ مَا هَذَا المَكَانْ؟ أَيْنَ النُّجُومُ وَالْأَكْوَانْ؟ يَالَهُ مِنْ حُلُمٍ مُخِيفْ...، نَعَمْ: إِنَّمَا هِيَ آثَارُ الْقِدَاحِ وَبَرْدُ الخَرِيفْ، أَوْ أَنَّهَا مُزْحَةٌ مِنْ نَدِيمِي، يُرِيدُ تَشْوِيشَ نَوْمِيَ الْعَمِيمِ.

فَنَادَيْتُ فِي العَتَمَةِ بِصَوْتٍ ذَلِيلْ: يَا مَنْ كَانَ لِي فِي اللَّهْوِ خَلِيلْ، أَيْنَ الرَّاحُ وَالتَّعْلِيلْ؟[2] فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَّا صَدَى الجُدْرَانْ، وَرِيحُ حفرةِ وَالهَوَانْ.

أَيْقِظُونِي مَا هَذَا بِالْمُزَاحْ، وَصُبُّوا لِي رَحِيقَ الرَّاحْ...، فَلَا جَوابَ وَلَا خِطَابْ، فَصَرَخْتُ حتَّى تَقَطَّعَت بِيَ الْأَسْبَابْ، فَتَأَمَّلْتُ عَنْ كَثَبْ، فَلَمْ أَجِدْ غيرَ التُّرَبْ، وَأَيْقَنْتُ أَنِّي لَسْتُ نائمًا، وَلَا فِي بُحُورِ الحُلْمِ عَائِمًا...، يَا وَيْلَتِي مَا هَذَا الْمَكَانْ؟ وَمَا هَذَا اللِّبَاس أَيْنَ الْأَلْوَانْ؟ لِبَاسٌ أَبْيَضٌ كَأَنَّهُ كَفَنْ؟ وَرِيحٌ مِنْ حَوْلِي كَأَنَّهُ عَفَنْ، فَحَاوَلْتُ أَنْ أَقُومَ فَمَا اسْتَطَعْت، وَصَرَخْتُ بِمَنْ حَوْلِي فَمَا

[1] أعتفي: أطلب العافية.

[2] التعليل: التلهّي، والاشتغال بالشيء، ويُقال "عَلَّلَ صبيَّه بالطعام" أي شغله به ليسكت عن البكاء.

سُمِعْت! فَجَعَلْتُ أَخْبِطُ بِيَدِي يَمِينًا وَشِمَالاً، وَأَبْحَثُ عَنْ مَخْرَجٍ كَانَ مُحَالاً، فَمَسَسْتُ سَقْفِي فَإِذَا هُوَ لَبِنٌ مَرْصُوصْ، وَجَسَدِي فِي جَوْفِ الأَرْضِ مَغْصُوصْ[1].

فَقُلْتُ: يَا نَفْسُ، أَيْنَ الرَّيَاحِينُ وَالعُطُورْ؟ وَأَيْنَ المَجَالِسُ وَالحُبُورْ؟ لَقَدِ اسْتَبْدَلْتِ بِالْمِسْكِ رِيحَ الرَّمِيمْ[2]، وَبِالنَّعِيمِ لَهَبَ الجَحِيمْ!

شَمَمْتُ بَعْدَ الْمِسكِ رِيحَ الرَّمْسِ ** وَذُقْتُ حَبْسِي بَعْدَ طِيبِ الْأُنْسِ

وَبُدِّلَ الرَّيْحَانُ بِالصَّخْرِ الَّذِي ** رُصَّتْ صُلُودُهُ[3] بِضِيقِ الْمَنْفَذِ

غَابَ الضِّيَاءُ وَانْطَفَتْ أَشْمَاسِي ** بِالضُّلْمَةِ الْكُبْرَى وَكَرْبٍ قَاسِي

هَوَى بَنَانِي[4] وَارْتَقَى عَنِّي بَيَانِي[5] ** وَانْقَطَعَتْ بِي حُجَّةُ الْإِنْسَانِ

*****

[1] مغصوص: مشتقة من الغُصَّة، والغَّصِّ، الأول: هو الذي وقف الشيء في حلقه، والثاني: هو الغمتلاء، تقول: غصَّ البيت بأهله، وفي السياق: غصَّ الجسدُ في القبر من ضيقه.

[2] كلمة الرَّميم تُطلق على العظام البالية المتفتتة.

[3] الصُّلود: جمع صلد: وهو: الصخر الأملس.

[4] البَنَان: هي أطراف الأصابع، أو الأصابع كُلّها، وقد يرد بالبنان الجسم كله، من باب ذكر الجزء وإرادة الكل.

[5] الْبَيَان: هو المنطق الفصيح، والقدرة على الإفصاح عما في النفس بوضوح.

{مَشْهَدُ}

{قَرْعِ النِّعَالْ، وَانْقِطَاعِ آخِرِ حِبَالِ الوِصَالْ}

سَمِعْتُ قَرْعَ نَعْلِ صَحْبِي يَخْتَفِي ** وَغَابَ عَنِّي بَعْدَ عِزِّي مَسْعَفِي[1]
فَأُسْلِمَتْ لِلرَّمْسِ نَفْسِي وَانْطَفَى ** رَجَاءُ قَلْبٍ بِالذُّنُوبِ مُرْجِفِ[2]

وَبَيْنَمَا أَنَا فِي كَرْبٍ، أُخَاطِبُ نفْسِي بِالْعُتْبِ، فَإِذَا بِي أَسْمَعُ قَرْعَ النِّعَالِ وَهِيَ تَبْتَعِدْ، وَقَلْبِي لِوَقْعِهَا يَرْتَجِفُ وَيَرْتَعِدْ! نَادَيْتُهُمْ فِي سِرِّي: «يَا مَنْ أَوْدَعْتُمُونِي القَفْر، وَتَرَكْتُمُونِي لِلضِّيقِ وَالقَهْر، أَيْنَ المَوَدَّةُ الَّتِي كُنْتُمْ تَزْعُمُونْ؟ وَأَيْنَ الصُّحْبَةُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَفْخَرُونْ؟» فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَّا صَمْتُ القُبُورْ، وَإِدْبَارُ مَنْ كَانَ بِالأَمْسِ مَسْرُورْ.

فَأَيْقَنْتُ حِينَهَا أَنَّ بَيْنَ الجَسَدِ وَالوُدِ مَوْعِدَةْ! فَلَا أَنِيسَ فِي الوَحْدَةْ، وَلَا نَاصِرَ فِي هَذِهِ الشِّدَّةْ، إِلَّا مَا حَمَلْتُهُ مِنْ زَادٍ قَلِيلْ، لِسَفَرٍ مَدِيدٍ وَثَقِيلْ، وَاسْتَيْقَنْتُ أَنَّنِي فِي قَبْرِي، وَلَا لِيَ الْيَوْمَ مِنْ عُذْرِ.

فَجَعَلْتُ أَتَلَفَّتُ كَالمَذْعُورْ، وَأَبْحَثُ عَنْ كُوَّةٍ لِلنُّورْ، فَلَمْ أَجِدْ إِلَّا رِدَاءً مُكَفَّنًا، وَمَكَانًا بِالوَحْشَةِ مُبْطَّنًا! فَنَادَيْتُ: يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي، وَيَا لَيْتَنِي مَا فَرَّطْتُ فِي صَلَاتِي.

وَرَاحَتْ أَيَّامُ السَّهَرَاتْ، وَانْتَهَتِ الْحَفَلَاتْ، وَمَا عَادَ لِي مِنْ صَحْبٍ وَلَا قَيْنَاتْ، فَمَا عَادَ قَدَحٌ يُدَارْ، وَلَا قَيْنَةٌ تُزِيلُ الأَكْدَارْ، بَلْ أَنَا وَحْدِي بَيْنَ الأَحْجَارْ.

فَعَلِمْتُ أَنَّ الحِيَلَ قَدِ انْقَطَعَتْ، وَأَنَّ حِبَالَ الدُّنْيَا قَدِ انْتَزَعَتْ! فَنَادَيْتُ بِأَعْلَى الصَّوْت: يَا مَنْ كَانُوا لِي فِي الدُّنْيَا نِعْمَ العَوْنْ، أَهَكَذَا تَتْرُكُونَنِي لِظُلْمَةِ هَذَا الكَوْنْ؟

---

[1] مَسعفي: من الإسعاف، والمُساعدة، وهو مصدر أو مكان الإسعاف، ويُقصد به، من يُسعفني.

[2] كلمة "مُرْجِف" مشتقة من الرَّجْفَة، وهي الاضطراب الشديد والتحرك العنيف.

سَمِعْتُ قَرْعًا لِنِعَالٍ تَبْتَعِدْ ** وَقَلْبِيَ الْمَكْرُوبُ مِنْهَا يَرْتَعِدْ

أَوْدَعْتُمُونِي الْقَفْرَ بَيْنَ الرَّامِسِ ** لَا صَاحِبٌ يُنْجِي بِهَ ذَا الْمَجْلِسِ

أَيْنَ الصِّحَابُ أَيْنَ مَنْ قَدْ زَعَمُوا ** مَوَدَّةً، هَيْهَاتَ: مِنِّي أَسْلَمُوا

رَاحَتْ لَيَالِي اللَّهْوِ مَعْ قَيْنَاتِهَا ** بَقَتْ دِيَارُ الْهُونِ مَعْ حَسْرَاتِهَا

صِرْتُ وَحِيدًا فَوْقَ فَرْشِ التُّرَبِ ** لَا حِيلَةٌ تُنْجِي وَلَا مِنْ مَهْرَبِ

يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ قَبْلَ الْمَوْتِ ** صَلَاتِيَ الْعُظْمَى لِقَبْلِ الْفَوْتِ

*****

{مَشْهَدُ}

{مُنْكَرٍ وَنَكِيرْ، وَدَهْشَةِ العَبْدِ عَنِ التَّذْكِيرْ}

مَاذَا تَقُولُ فِي سُؤَالِ الْمَلَكِ ** مَنْ رَبُّكَ الْيَوْمَ بِدَارِ الدَّرَكِ؟
مَا دِينُكَ الْيَوْمَ وَمَنْ مَوْلَاكَا؟ ** أَيْنَ الَّذِي بِاللَّهْوِ قَدْ أَغْوَاكَا؟

وَبَيْنَمَا أَنَا فِي رَوْعِي وَارْتِجَافِي، وَقَلْبِي يَنْبِضُ بِلَا تَكَافِي، إِذَا بِقَبْرِي يَنْشَقُّ عَنْ هَوْلٍ عَظِيمْ، وَبَرَزَ لِي مَلَكَانِ بِصَوْتِ الرَّعْدِ الْزَيِمْ[1]، مَلَكَانِ أَهْوَلَانْ، أَزْرَقَانِ أَنْوَرَانْ[2]، لَا يَرْحَمَانِ دَمْعَةَ بَاكِ، وَلَا يَهَابَانِ صَوْلَةَ فَتَّاكِ.

أَعْيُنُهُمَا كَقُدُورِ النُّحَاسِ المُسْتَعِرَةْ، وَأَصْوَاتُهُمَا كَالرَّعْدِ فِي القَفْرَةْ! يَفْحَصَانِ الأَرْضَ بِأَنْيَابِهِمَا فَحْصاً، وَيَهُزَّانِ الجَسَدَ المَذْعُورَ رَقْصاً، بِيَدِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِطْرَقَةٌ مِنْ حَدِيدْ، لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ لَمَادَ وَصَارَ لِكُرْبَةِ الصَّدِيدْ.

فَأَجْلَسَانِي بِانْتِهَارْ، وَأَحَاطَا بِي كَإِحَاطَةِ السِّوَارْ، فَانْعَقَدَ لِسَانِي عَنِ الكَلَامْ، وَتَشَبَّكَتْ عِظَامِي مِنْ شِدَّةِ الِارْتِطَامْ

فَانْخَلَعَ لَهُولِهِمَا فُؤَادِي، وَخَانَنِي فِي المَقَالِ اعْتِيَادِي! فَإِذَا بِهِمَا قَدْ انْتَهَرَانِي، وَبِعَيْنَيْنِ كَالشُّهُبِ نَظَرَانِي، وَقَالاَ بِصَوْتٍ يَزِلُّ لَهُ الصَّخْرُ الصَّلِيدْ: قُمْ يَا هَذا لِلْحِسَابِ العَتِيدْ[3].

فَأُقْعِدْتُ وَأَنَا أَرْتَعِدُ كَالسَّعَفَةْ[4]، وَقَدْ غَابَتْ عَنِّي كُلُّ مَعْرِفَةْ، وَطَاشَ لُبِّي، وَعَظُمَ كَرْبِي، وَأَيْقَنْتُ أَنَّ المَسْؤُولَ مَنْسِيٌّ، وَأَنَّ المَوْقِفَ جِدُّ قَسِيٌّ.

---

[1] الهزيم: هو صوت الرعد القوي.

[2] في هذا السياق كلمة: أنوران تشير إلى: السطوع الحاد المفزع، أي: زرقة ساطعة.

[3] العتيد: هو الحاضر، والمُهيَّأ، قم للحساب العتيد: أي: قم للحساب المهيَّأ الذي هُيِّئ لك.

[4] السَّعفة: غسن النخيل.

فَجَعَلْتُ أَرُومُ النُّطْقَ فَلَا أَبِينْ، وَكَأَنَّ عَلَى ثَغْرِي صَخْرًا مَتِينْ! فَذَكَرْتُ مَا كَانَ مِنِّي فِي لَيَالِي المَزَارِعْ، وَكَيْفَ كُنْتُ لِدَاعِي الهُدَى غَيْرَ طَائِعْ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: يَا وَيْحَ ابْنَ إِبْرَاهِيمْ! أَبِفَمٍ أَكَلَ الحَرَامْ، وَلِسَانٍ غَرِقَ فِي الآثَامْ، أَرْجُو النَّجَاةَ وَالسَّلَامْ؟

فَإِذَا بِالمَلَكَيْنِ يَنْتَهِرَانِي انْتِهَارًا، وَيَزْجُرَانِي زَجْرًا صَارًا، وَقَالاَ: "أَنْطِقْ بِمَا كُنْتَ تَعْتَقِدْ، قَبْلَ أَنْ تَصِيرَ لِلنَّارِ كَالمُحْتَفِدْ[1]" فَانْهَلَّتْ عَبَرَاتِي، وَتَزَاحَمَتْ حَسَرَاتِي، وَتَمَنَّيْتُ لَوْ أَنِّي كُنْتُ تُرَابًا، وَلَمْ أَلْقَ الْيَومَ حِسَابًا.

فَجَعَلْتُ أَرُومُ الحَرْفَ فَلَا أَجِدُهْ، وَأَطْلُبُ القَوْلَ فَلَا أَعْهَدُهْ! فَكَأَنَّ لِسَانِي مَعْقُودٌ بِأَغْلَالِ الآثَامْ، وَكَأَنَّ ذَاكِرَتِي مَحْوٌ مِنَ الأَوْهَامْ، فَقُلْتُ بِصَوْتٍ مُنْكَسِرٍ حَزِينْ: "هَا.. هَا.. لَا أَدْرِي!"، فَإِذَا بِالصَّرْخَةِ تُمَزِّقُ صَدْرِي.

فَنَادَى المَلَكَانِ بِصَوْتٍ كَالصَّاعِقَة: "لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتْ!"، ثُمَّ أُذِنَ لِلقَبْرِ فَانْضَمَّ حَتَّى انْطَوَيْتْ. فَإِذَا بِي بَيْنَ مَطَارِقِ السَّجِّيلْ، وَنَارٍ لَا تَعْرِفُ المَقِيلْ! فَصَارَتْ تِلْكَ المَزَارِعُ حُفْرَةً مِنَ النِّيرَانْ، وَتَبَدَّلَتِ القَيْنَاتُ بِعَقَارِبَ وَثُعْبَانْ، تَنْهَشُ جَسَدِي اللَّصِيقْ، وَتَسْقِينِي مِنْ هَوْلِ الضِّيقْ.

فَلَمَّا عَجَزْتُ عَنِ التَّبْيِينْ، وَضَاعَ مِنِّي مِفْتَاحُ اليَقِينْ، رُفِعَتْ عَلَيَّ مَرَازِبُ[2] مِنْ حَدِيدْ، لَهَا وَقْعٌ يُذِيبُ الوَرِيدْ! فَضَرَبُونِي ضَرْبَةً صَرَخْتُ لَهَا صَرْخَةً نَكْرَاءْ، سَمِعَهَا مَنْ فِي الأَرْضِ وَالسَّمَاءْ، إِلَّا الثَّقَلَيْنِ فَهُمَا فِي غَفْلَةٍ صَمَّاءْ.

ثُمَّ قِيلَ لِي: يَا مُضَيِّعَ المَفْرُوضْ، هَلُمَّ إِلَى وُضُوءٍ مَرْفُوضْ! فَأَتَوْنِي بِمَاءِ الرَّصَاصِ المَغْلِيّ، وَقَالُوا: تَوَضَّأْ لِلصَّلَاةِ كَيْ تُصَلِّي! فَصَبَبْتُهُ عَلَى أَعْضَائِي، فَأَكَلَ لَحْمِي وَدِمَائِي، وَبَانَ العَظْمُ لِلنَّاظِرِينْ، وَأَنَا فِي زُمْرَةِ النَّادِمِينْ! وَكُلَّمَا هَمَمْتُ بِالفِرَارْ، ذُقْتُ مِنْ ضَرْبِهِمْ مَرَارَةَ النَّارْ، حَتَّى صَارَ مَاءُ الرَّصَاصِ عِنْدَ ذَا، أَهْوَنَ مِنْ مَقَامِعِ الحَدِيدِ وَالرَّدَى.

---

[1] المُحتفد: هو المسرعُ في الخدمة، وفي المقامة المراد هو: قبل تُساق للنار بسرعة منَّا نحن الملكين فنحن خدام الله جل وعلا.

[2] المزارب: المطارق.

ثُمَّ جَاءُونِي بِسِجَّادٍ مِنَ السجِّينْ[1]، وَقَالُوا: ارْكَعْ لِمَنْ كُنْتَ بِهِ لَا تَسْتَعِينْ! فَمَا إِنْ وَقَفْتُ عَلَيْهَا حَتَّى انْتُزِعَتْ أَقْدَامِي، وَسَجَدْتُ فَتَسَاقَطَتْ جَبْهَتِي وَعِظَامِي! وَخَنَقَنِي رِيحُهَا المُنْتِنْ، وَأَنَا فِي مَحْبِسِي المُرْتَهَنْ.

ثُمَّ أُعِيدَ لَحْمِي كَمَا كَانْ، لِتَأْكُلَنِي الأَفَاعِي وَالدِّيدَانْ، وَأَنَا أُبْصِرُ عَيْنَ الفَنَاءْ، وَأَتَجَرَّعُ كُؤُوسَ الشَّقَاءْ.

وَبَيْنَمَا أَنَا فِي هَذَا الضِّيقْ، بَرَزَ لِي بَابٌ كَالرَّحِيقْ! رَأَيْتُ مِنْ وَرَائِهِ القُصُورَ وَالحُورْ، وَرِيَاضًا تَضْحَكُ بِالنُّورْ، فَقُلْتُ: زَالَ كَرْبِي، وَأَتَانِي عَفْوُ رَبِّي! فَقِيلَ لِي: كَلَّا، هَذَا مَقْعَدُكَ لَوْ صَلَّيْتْ، وَمَكَانُكَ لَوْ للهِ لَبَّيْتْ! ثُمَّ انْغَلَقَ البَابْ، وَفُتِحَ بَابُ العَذَابْ! فَإِذَا بِنَارٍ سَوْدَاءْ، لَا ظِلَّ فِيهَا وَلَا مَاءْ، وَأَغْلَالٍ وَحَيَّاتٍ كَالجِبَالِ الصَّمَّاءْ! فَنَادَيْتُ: وَا حَسْرَتَاهْ، عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنْبِ اللهْ، أَهَذَا هُوَ المَآلْ؟ وَأَيْنَ المَفَرُّ وَقَدْ تَقَطَّعَتِ الحِبَالْ؟

فَلَمْ أَزَلْ فِي تِلْكَ الأَهْوَالِ نَزِيلاً، وَلِعَذَابِ الرَّصَاصِ وَالنَّارِ قَتِيلاً! فَصَلَاتِي عَلَى اللَّهَبِ دَيْدَنِي، وَأَكْلُ الصِّلالِ[2] لِلَحْمِي وَبَدَنِي، مَحْبُوسٌ فِي ضِيقِ المَلْحَدْ، بَيْنَ ضَرْبِ المَقَامِعِ وَالحَرِّ المُؤْبَدْ.

أَيْ: مُنْكَرٌ، مَا هَوْلُ مَا قَدْ جِئْتَ بِهْ ** أَيَا نَكِيرُ غَائِمٌ[3] مَا أَرْعَبَهْ

زُرْقُ الْعُيُونِ فِي الْحَنَاجِرِ الرَّعَدْ ** تَنَافَسَا عَلَيَّ مَنْ أَقْوَى أَشَدْ

سَأَلُونِيَ الْيَوْمَ فَهَالَ مَوْقِفِي ** نَسِيتُ مِنْ هَوْلٍ كَلَامَ مُصْحَفِي[4]

سِجَّادُ نَارٍ قَدْ غَدَا لِي مَوْضِعَا ** رَصَاصُ غَلْيٍ فِي عُرُوقِي قَدْ مَعَا[5]

*****

[1] السجين: هو المكان السفلي، والمعنى البلاغي أنهم جاؤوا لبطل القصة بسجاد من المكان السفلي والمقصود به النَّار.

[2] الصلال: الأفاعي.

3 غائمٌ: كلام بليغ، شبَّه فيه الشاعر وجه نكير باليوم الغائم.

[4] أي: نسى ما في المُصحفِ من كلام الله تعالى الذيُ حيل إلى كلام رسوله ﷺ، والذي بالتَّالي فيه التحذير من الدنيا ومن فتنة القبر والآخرة.

[5] معا: من ماع: مَاعَ الشيءُ يَمِيعُ مَيْعاً، أي سَالَ وجَرَى على وجه الأرض، والمعنى: أنَّ بماء الرصاص مع لحمي وسال.

{مَشْهَدُ}

{نَفْخَةِ الِارْتِيَاعْ، وَقِيَامِ الخَلَائِقِ لِلِاجْتِمَاعْ}

صُورٌ صِيَاحُهُ يُصَدِّعُ الْأُذُنْ ** مِنْ نَفْخِ إِسْرَافِيلَ بَعْدَمَا أُذِنْ

فَقَامَ مَنْ فِي اللَّحْدِ يَرْجُو أَمْنَهُ ** وَقَدْ جَفَا عَنْهُ السُّبَاتُ وَالْوَسَنْ[1]

وَبَيْنَمَا أَنَا فِي غَمْرَةِ هَذَا الشَّقَاءْ، وَقَدْ يَئِسْتُ مِنَ الرَّخَاءْ، إِذَا بِصَيْحَةٍ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا، صُعِقَ مِنْهَا كُلُّ مَنْ سَمِعَهَا، نَفْخَةٌ لَا يَقُومُ لَهَا مَنْ سَمِعَهَا! صَرخةٌ زَلْزَلَتِ الأَرْكَانْ، وَأَذْهَلَتِ الجَانَّ وَالإِنْسَانْ، فَفَزِعْتُ فَزْعَةً خَلَعَتِ الفُؤَادْ، وَأَنْسَتْنِي مَا كُنْتُ فِيهِ مِنَ السُّهَادْ.

ثُمَّ نَفْخَةٌ أُخْرَى أَشَدُّ مِمَّا قَبْلَهَا، تُنْذِرُ بِأَهْوَالِ مَا يَأْتِي بَعْدَهَا.

فَإِذَا بِقَبْرِي يَنْفَجِرُ عَنْ رَأْسِي، وَيَنْكَشِفُ عَنِّي غِطَاءُ حَبْسِي! فَخَرَجْنَا مِنَ الأَجْدَاثِ كَالفَرَاشِ المَبْثُوثْ، وَقَلْبِي مِنَ الرُّعْبِ مَلْهُوثْ.

فَنَظَرْتُ فَإِذَا الأَرْضُ غَيْرُ الأَرْضْ، وَالسَّمَاءُ قَدْ طُوِيَتْ طَيَّ الْقَبْضِ[2]! وَإِذَا بِالنَّاسِ حُفَاةً عُرَاةْ، غُرْلاً مِنَ السِّتْرِ وَالأَدَاةْ، يَمُوجُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضْ، وَقَدْ دُكَّتِ الجِبَالُ دَكّاً فَلَا عُلُوَّ وَلَا خَفْضْ.

فَصَرَخْتُ: يَا وَيْلَتَاهْ! أَهَذَا يَوْمُ الحِسَابْ؟ أَهَذَا مَوْعِدُ الفَصْلِ وَالعِقَابْ؟ فَأَيْنَ المَفَرُّ وَالسَّمَاءُ فَوْقِي تَمُورْ، وَالأَرْضُ تَحْتِي كَالبِرْكَةِ تَفُورْ؟

فَقُلْنَا: {يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا}[3]

---

[1] الوسن: بدءُ النُّعاس.

[2] التعبير لغوياً صحيح ومستقيم؛ فـ "الطي" هو جمع الشيء ولفه، و"القبض" هو أخذه وجمعه بالكف أو بالقوة.

[3] سورة: يس: 52.

يَا خَيْبَةَ الْعُمْرِ الَّذِي مَنَّانِي ** وَبَاعَنِي لِلْمَوْتِ وَالْأَكْفَانِ

أَضَعْتُ دِينِي فِي مَزَارِعِ الْهَوَى ** فَأُشْرِبَتْ ذَاتِي ذَلِيلَ الدَّانِي[1]

وَمَا انْتَفَعْتُ بِالْكُؤُوسِ والْغِنَى ** إِذْ صِيحَ فِي الصُّورِ الَّذِي أَشْقَانِي

وَبِتُّ فِي الضِّيقِ الْعَظِيمِ مُرْتَهَنْ ** بِذَنْبِيَ الطَّاغِي الَّذِي أَرْدَانِي

ضَاعَ الْهَوَى وَالْكَأْسُ وَاللَّذَّاتُ فِي ** يَوْمِ الشَّقَى وَخَيْبَةِ الْخُسْرَانِ

*****

[1] الدَّاني: مقابلة بلاغية: كأنك تقصد "الخسيس القريب" الذي التصق بالنفس حتى أذلها، أو "الدنيء" الذي نزل بمستوى النفس إلى الحضيض.

{الْمَقَامَةُ الثَّالِثَةُ}

{المَقَامَةُ الحَاشِرَةْ، فِي كَشْفِ مَسْتُورِ الآخِرَةْ}

مَقَامَةٌ حَاشِرَةٌ لِلْمَوْقِفِ ** تَكْشِفُ مَسْتُورَ الْخَفَا لِلْمُنْصِفِ
هُنَاكَ أَسْرَارُ الْعِبَادِ تَنْجَلِي ** وَيَفْضَحُ اللهُ سِتَارَ الْمُسْرِفِ

حَكَى عِصَامُ الدِّينِ بْنُ إِبْرَاهِيم النَّقَيْلِي، مَنْ سَهَى عَنْ مَوْعِدِ الرَّحِيلِي، المَبْعُوثُ مِنْ ضِيقِ الرُّمُوسْ، إِلَى هَوْلِ يَوْمِ العُبُوسْ، قَالَ:

لَمَّا نُفِخَ فِي الصُّورْ، فَصَعِقَ مَنْ فِي القُبُورْ، وَتَشَقَّقَتِ السَّمَاءُ وَمَارَتِ لِلْحُضُورْ[1]، وَإِذَا بِي أَنْفُضُ التُّرَابَ عَنْ رَأْسِي، وَأَخْرُجُ بَعْدَ طُولِ حَبْسِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا الخَلَائِقُ كَالفَرَاشِ المَبْثُوثْ، وَكُلٌّ مِنْ هَوْلِ المَوْقِفِ مَلْهُوثْ، يَمُوجُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ كَالسَّرَابْ، وَقَدْ غَابَ عَنْهُمُ التَّعْلِيلُ وَالأَسْبَابْ.

فَأَبْصَرْتُ الجِبَالَ قَدْ أَصْبَحتْ تُرَابْ، وَالأَرْضَ قَدْ دُكَّتْ بَعْدَ طُولِ غِيَابْ، فَأَصْبَحَتْ قَاعاً صَفْصَفاً لَا مَعْلَمَ فِيهَا لِدَارْ، وَلَا مَلْجَأَ لِفَارٍّ مِنَ النَّارْ، هُنَالِكَ أَيْقَنْتُ أَنَّ الوَعْدَ حَقٌّ، وَأَنَّ مَا كُنْتُ فِيهِ مِنَ اللَّهْوِ رِقٌّ، فَذَهَلَتِ المُرْضِعَةُ عَنْ رَضِيعِهَا، وَنَسِيَتْ الأُمُّ وَلِيدَهَا، وَجَاءَ النَّاسُ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ لِمَنْ دَرَى.

فَجَعَلْتُ أَسْعَى حَافِياً عُرْيَاناً، لَا أَجِدُ لِي صَحْباً وَلَا أَعْوَاناً، وَقَدْ أُشْرِبَتْ ذَاتِي ذَلِيلَ الدَّانِي، وَأَيْقَنْتُ أَنَّنِي شَرُّ الجَانِي.

[1] مارت: تحرَّكت وتموَّجت، والمعنى مارت للحضور، أي: أمام أعين الحضور.

تَبَدَّلَتْ أَرْضِي بَغَيْرِ أَرْضِيَا ** وَالطَّوْدُ صَارَ تُرْبَةً يَا وَيْلِيَا

غَارَ الضِّيَاءُ غَابَ عَنْ سُكَّانِهَا ** بِالْحَشْرِ إِذْ تَرَعَّدَتْ أَنْفَاسُهَا

لِلْقَلْبِ خَفْقٌ وَدَمٌ فِي الْأَدْمُعِ ** والْخَلْقُ تَجْثُوا فِي ارْتِجَافِ الْمَجْمَعِ

هَذَا هُوَ الْوَعْدُ الَّذِي كُنْتُ أَرَى ** حقًّا وَلَكِنْ لَهْوُ عَقْلِي قَدْ جَرَى

*****

{مَشْهَدُ}

{الزَّجْرَةِ الوَاحِدَةْ، وَالخُرُوجِ لِلْقِيَامَةِ الشَّاهِدَةْ}

خَرَجْتُ مِنْ لَحْدِي كَأَنِّي خَامِرُ ** عَارٍ فَلَا لِبَاسَ لِي أَوْ سَاتِرُ

كُلٌّ غَدَا مِنْ فِعْلِهِ يُحَاذِرُ ** إِذْ نُشِّرَتْ بَيْنَ الْوَرَى السَّرَائِرُ

فَلَمَّا خَرَجْتُ مِنْ مَلْحَدِي، وَنَفَضْتُ كَفَنِي بِيَدِي، اسْتَحْيَيْتُ مِنْ قُبْحِ مَنْظَرِي، وَخَجِلْتُ مِنْ سُوءِ مَخْبَرِي! فَتَذَكَّرْتُ مَلْهَايَ مَعَ القَيْنَاتْ، وَكَيْفَ بَدَّلْتُ البَاقِيَاتِ بِالفَانِيَاتْ، فَعَلِمْتُ أَنَّ الجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ العَمَلْ، وَأَنَّ الحِرْمَانَ قَدْ حَلَّ بَدَلَ الأَمَلْ.

فَخَرَجْتُ يَعْلُونِي التُّرَابُ وَالغُبَارْ، كَأَنِّي كَلْبٌ مَسْعُورٌ يَخْشَى النَّهَارْ! قَلْبِي يَكَادُ يَثِبُ مِنْ بَيْنِ الضُّلُوعْ، وَعَيْنِي تَفِيضُ بِأَنْهَارِ الدُّمُوعْ، فَنَظَرْتُ: فَإِذَا الخَلَائِقُ أَوْجُهُهُمْ سَوْدَاءْ، وَقَدْ غَشِيَتْهُمْ مِنَ الفَزَعِ غَمْرَةٌ عَمْيَاءْ.

وَرَأَيْتُ أَقْوَامًا يَمْشُونَ عَلَى الوُجُوهْ، وَكُلُّ وَاحِدٍ فِي كَرْبِهِ مَشْدُوهْ[1]!

وَرَأَيْتُ أَقْوَامًا عُمْيًا صُمًّا بُكْمًا، وَآخَرِينَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مُكَبَّلِينَ غُمًّا، وَرَأَيْتُ الخَلَائِقَ أَلْوَانًا، كُلٌّ يُبْعَثُ عَلَى مَا كَانَ فِي دُنْيَاهُ شَأْنًا وَعُنْوَانًا.

وَبَيْنَمَا أَنَا فِي هَذَا الخِزْيِ المُقِيمْ، رَأَيْتُ رِجَالًا وُجُوهُهُمْ كَالبَدْرِ الوَسِيمْ، عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ كَالنُّورِ المَسْكُوبْ، وَقَدْ أَمِنُوا مِنْ كُلِّ مَرْهُوبْ! وَلَيْسَ بِهِمْ شَخْصٌ مَعْيُوبْ، فَتَمَنَّيْتُ لَوْ كُنْتُ مِنْهُمْ سَبِيلًا، وَلَكِنَّ ذَنْبِي جَعَلَ المَقَامَ ثَقِيلًا.

[1] المشدوه: الذي ذَهَبَ عَقْلُه من شِدَّةِ الفَزَعِ أو المفاجأة. يقال: "شُدِهَ الرجلُ".

خَرَجْتُ يَعْلُونِي غُبَارُ الْمَلْحَدِ ** وَالْهَمُّ مِنْ قُبْحِي وَسُوءِ الْمَقْصِدِ

وَوَالِدِي مَذْهَوْلُ قَدْ أَبْدَى غِنَى ** عَنِّي وَنَادَيْتُ حَمَاهُ مَا عَنَى[1]

وَخِلُّ عُمْرِي قَدْ جَفَا وَمَا دَنَا ** مِنِّي، وَأَلْقَى لِلْجَزَا مَا قَدْ جَنَى

فَيَا لَمَحْشَرِي وَمَا أَرْعَبَهُ ** وَيَا لَحَظِّيْ فَمَا أَتْعَسَهُ

*****

[1] الفعل (عَنَى) يعني قَصَدَ واهتمَّ، والمعنى: أنَّ الشاعر لمَّا نادى أباه أن يحميه ما اهتمَّ بهِ من هول الموقف.

{مَشْهَدُ}

{القَاعِ الصَّفْصَفْ، وَالحَشْرِ إِلَى المَوْقِفِ الأَخْوَفْ}

دَعُونِيَا إِلَى بِقَاعِ الْحَشْرِ ** دَعًّا، بِكُلِّ شِدَّةٍ بِالزَّجْرِ
وَالْحَشْرُ مَاضٍ لَا مَفَرَّ لِلْوَرَى ** وَالنَّاسُ فِي تَمْوَاجِهِمْ كَالْبَحْرِ
لَا تَرْجُوَنَّ فِيهِ مِنْ أَبٍ وَلَا ** أُمٍّ عَطَاءً، رَحْمَةً، أَوْ نَصْرِ

فَبَيْنَمَا أَنَا فِي خِزْيِي مَغْمُورْ، وَبِتُرَابِ لَحْدِي مَمْطُورْ، إِذَا بِزَبَانِيَةٍ غِلَاظٍ شِدَادْ، كَأَنَّهُمُ القَطِرانُ فِي السَّوَادْ! ضِخَامُ الأَجْسَامْ، لَا يَعْرِفُونَ الرَّأْفَةَ وَلَا الإِكْرَامْ! لَهُمْ أَعْيُنٌ كَالمَرَاجِلِ تَغْلِي، وَأَصْوَاتٌ لِلقُلُوبِ تَفْلِي.
فَأَقْبَلُوا عَلَيْنَا بِعُنْفٍ وَارْتِجَاجْ، وَسَاقُونَا سَوْقَ الإِبِلِ فِي الهِيَاجْ[1]! فَمَا نَحْنُ عِنْدَهُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ المَسُوقَةْ، إِلَى الذَّبْحِ وَالأَعْنَاقُ مَشْنُوقَةْ! يَزْجُرُونَنَا بِصَيْحَةٍ تَهُدُّ الجِبَالْ، وَيَدْفَعُونَنَا دَفْعًا يَقْطَعُ الآمَالْ.

فَكُنْتُ أَتَعَثَّرُ فِي أَذْيَالِ خَوْفِي، وَأَمْشِي وَالمَوْتُ عَنْ يَمِينِي وَخَلْفِي! نَادَيْتُهُمْ بِالرَّحْمَةِ فَمَا أَجَابُوا، وَسَأَلْتُهُمْ عَنِ المَفَرِّ فَعَابُوا! بَلْ زَادُوا فِي الدَّفْعِ وَالاِنْتِهَارْ، وَقَالُوا: "سِيقُوا المُجْرِمَ إِلَى دَارِ البَوَارْ.

فَأَيْقَنْتُ أَنَّ عِزَّتِي فِي المَزَارِعِ صَارَتْ ذِلاًّ، وَأَنَّ جَبَرُوتِي فِي المَلَاهِي صَارَ كَلاًّ! فَسِقْتُ كَالشَّاةِ الذَّلِيلَةْ، لَا نَاصِرَ لِي وَلَا حِيلَةْ، حَتَّى وَقَفْتُ أَمَامَ الْمَشْهَدِ العَظِيمْ، وَقَدْ تَقَطَّعَ قَلْبِي مِنَ الزَّفِيرِ وَالْمَشْهَدِ الْأَلِيمْ.

فَلَبِثْنَا فِي ذَلِكَ المَحْشَرِ أَمَدًا طَوِيلًا، لَا نَجِدُ إِلَى الظِّلِّ سَبِيلًا! وَقَدْ خَرِسَتِ الأَلْسُنُ فَلَا نَطِيقُ قَالًا وَلَا قِيلًا، وَثَقُلَتِ الهُمُومُ فَمَا نَحْمِلُ إِلَّا حَمْلًا ثَقِيلًا.

[1] هياج الإبل: يُقال "هاجت الإبل" إذا ذُعرت واضطربت فصارت تعدو في كل اتجاه لا تلوي على شيء.

فَكُنْتُ أَنْظُرُ إِلَى الشَّمْسِ وَهِيَ تَصْهَرُ الأَبْدَانْ، وَأَرَى العَرَقَ يَفُورُ كَمَا تَفُورُ الخِلْجَانْ[1]! فَطَالَ بِنَا الوُقُوفُ حَتَّى جَثَتِ الأُمَمُ عَلَى الرُّكَبْ، وَاشْتَعَلَتِ الأَنْفَاسُ بِزَفِيرِ اللَّهَبْ! فَكَمْ مِنْ سَاعَةٍ مَرَّتْ كَأَنَّهَا دَهْر، وَكَمْ مِنْ كَرْبٍ ضَاقَ بِهِ الصَّدْر.

فَظَنَنْتُ أَنَّ الحِسَابَ لَنْ يَأْتِي، وَأَنَّ المَوْتَ قَدْ نَسِيَ رُفَاتِي! فَنَادَيْتُ فِي نَفْسِي: يَا طُولَ هَذَا العَنَاءْ! أَمَا لِهَذَا المَوْقِفِ مِنِ انْتِهَاءْ؟ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَّا صَمْتُ الرِّحَامْ، وَنَظَرَاتُ الذُّعْرِ وَالاشْتِيَامْ[2]! فَأَيْقَنْتُ أَنَّ هَذَا هُوَ "يَوْمُ الفَصْل"، وَأَنَّ مَا كُنْتُ فِيهِ مِنَ الْغَيِّ كَانَ نِهَايَةَ الوَصْل!

سَاقُوا الْعُصَا كَمَا تُسَاقُ الْأَنْعَامْ ** وَانْتَهَتِ الْأَفْرَاحُ بَلْ وَالْأَحْلَامْ

شَمْسٌ تَدَنَّتْ فَوْقَ هَامِ الْخَلْقِ ** وَالْعَرَقُ الْفَوَّارُ عِنْدَ الْحَلْقِ

مِثْلَ الْخَلِيجِ مِنْ هَجِيرِ الزَّفْرَةِ[3] ** وَالْعَطَشُ الْكَاوِي سُقَى مِنْ عَبْرَتِي [4]

وَالْأَرْضُ صَفْصَفٌ فَلَا مِنْ مَهْرَبِ ** وَالْكُلُّ يَجْثُو لِلْحِسَابِ الْمُرْعِبِ

وَالصُّحْفُ طَارَتْ كَالْجَرَادِ الْمُنْتَشِرْ ** فِي كَفِّ عَبْدٍ بِالذُّنُوبِ مُنْكَسِرْ

*****

[1] الخلجان: جمع خليج: الدلالة في الموعظة (العَرَق): حين تصفُ مَشهدَ المحشر، يمكنك استخدام "الخِلْجَان" لتصوير كثرةِ العَرَقِ وسيلانِه؛ فكأنَّ عَرَقَ الخلائقِ لم يَعُد قطرات، بل صار أنهاراً وخِلْجاناً تموجُ بين الزحام.

[2] الاشتيام: هي من (شَامَ / يَشِيمُ)، ويُقال: اشْتَامَ البرقَ أي نَظَرَ إليه وتَفَرَّسَه ليرى أين سيقع أمره.

[3] الهجير: شدة الحر، والزفرة: مفرد زضفير، وهو إخراج الهواء من الفم، الدلالة في الموعظة: حين تقول "هَجِيرُ الزَّفْرَةِ"، فأنت تصف حالةً لا يجتمع فيها حرُّ الشمسِ الخارجي (الهجير) فحسب، بل يختلطُ بحرارةِ الأنفاسِ الملتهبةِ الصادرةِ من الصدورِ المكروبة (الزفرة)، فكأنَّ الهواءَ نفسَه صارَ نيراناً تُستنشَقُ وتُخرَج.

[4] العَبرة: الدمعة قبل أن تفيض، وهي بالمعنى البلاغي دمعة العين.

{مَشْهَدُ}

{قِرَاءَةِ الكِتَابْ، وَدَهْشَةِ العَبْدِ عِنْدَ الحِسَابْ}

يَا وَيْلَتِي مَا بَالُ هَذَا الْقِرْطَاسْ ** قَدْ فَضَحَ الْمُذْنِبَ مَا بَيْنَ النَّاسْ
يَا وَيْلَتِي مَا بَالُهُ لَمْ يَتْرُكِ ** صَغِيرَ أَوْ كَبِيرَةً لَا تَنْحَكِ[1]

فَلَمَّا بَلَغَ الكَرْبُ الزُّبَى، وَضَاقَ بِالفَزَعِ الرُّبَا، وَاشْتَدَّ الهَوْلُ وَالرُّعْب، وَغَاصَتِ النُّفُوسُ فِي الصَّعْب! فَإِذْ بِالسَّمَاءِ تَمْطُرُ كُتُبًا وَصُحُفًا، وَالخَلَائِقُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا شَغَفًا وَخَوْفًا.
فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِاليَمِينْ، فَهُوَ السَّعِيدُ الفَائِزُ بِالتَّمْكِينْ؛ وَمَنْ هَوَى كِتَابُهُ فِي الشِّمَالْ، فَهُوَ الشَّقِيُّ الهَالِكُ بِسُوءِ المَآلْ.

فَكُنْتُ أَرْفَعُ بَصَرِي لِلسَّمَاءْ، وَقَلْبِي يَرْتَجِفُ مِنَ الشَّقَاءْ! أَقُولُ: أَيَسْقُطُ كِتَابِي بِاليَمِينْ؟ أَمْ أَكُونُ فِي زُمْرَةِ المَلْعُونِينْ؟ فَجَعَلْتُ أَتَلَقَّفُ الأَوْرَاقْ، وَقَدْ بَلَغَتِ الرُّوحُ التَّرَاقْ! فَإِذَا بِكِتَابِي يَهْوِي كَالصَّاعِقَةِ السَّوْدَاءْ، وَإِذَا بِيَمِينِي تَنْقَبِضُ عَنْهُ فِي انْطِوَاءْ.

فَسَقَطَ الكِتَابُ فِي شِمَالِي مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي، فَعَلِمْتُ أَنَّ هَذَا هُوَ يَوْمُ خُسْرِي! فَصَرَخْتُ صَرْخَةً زَلْزَلَتِ كِيَانِيَهْ، فَقُلْتُ دُونَ أَنْ أَدْرِيَهْ: {يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ}[2] فَنَظَرْتُ فِي صَفَحَاتِهِ المَشْؤُومَةْ، فَإِذَا هِيَ بِفَضَائِحِ المَزَارِعِ مَرْسُومَةْ! كُلُّ سَهْرَةٍ وَقَيْنَةٍ وَخَمْرَةْ، صَارَتْ عَلَيَّ اليَوْمَ حَسْرَةً بَعْدَ حَسْرَةْ.

فَتَعَمَّقْتُ فِي الكِتَابْ ، بِقَلْبٍ وَثَّابْ، فَوَجَدْتُ مَا نَسِيتُهُ مِنْ قَبَائِحِي حَاضِراً، وَمَا جَهِلْتُهُ مِنْ مَسَاوِئِي نَاشِراً! فَمَا غَادَرَ هَذَا القِرْطَاسُ شَيْئاً إِلَّا أَحْصَاهْ، وَلَا سِراً فِي النَّفْسِ إِلَّا أَرْسَاهْ؛ حَتَّى

---

[1] يريد الشَّاعر: أنَّ هذه الكبير لا يُحكى عليها ولا يتم ذكرها من شدَّة قبحها وشناعتها.
[2] سورة: الحاقة: 25 – 29.

خَلَجَاتِ ضَمِيرِي، وَخَفِيَّ مَسِيرِي! فَأَيْقَنْتُ أَنَّ الحُجَّةَ قَدْ قَامَتْ، وَأَنَّ الأَمَانِيَّ الضَّالَّةَ قَدْ خَارَتْ وَمَا دَامَتْ.

فَانْخَلَعَ مِنْ هَوْلِهِ قَلْبِي، وَضَاقَ بِي فِي المَحْشَرِ دَرْبِي؛ فَبَكَيْتُ وَمَا نَفَعَ البُكَاءْ، وَارْتَجَيْتُ فَمَا أَغْنَى الرَّجَاءْ! فَنَادَى مُنَادٍ بِصَوْتٍ صَادِعْ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾[1] لِجَازِعٍ أَوْ خَاضِعْ.

فَقُلْتُ بِصَوْتٍ ذَلِيلْ، وَدَمْعٍ عَلَى الخَدِّ يَسِيلْ: "وَاللهِ مَا ظَلَمَنِي رَبِّي لَحْظَةْ، وَلَكِنْ كُنْتُ لِنَفْسِي ظَالِماً فِي كُلِّ لَفْظَةْ.

فَغَشِيَنِي الهَوَانْ، وَتَمَلَّكَنِي الذُّلُّ وَالخُسْرَانْ؛ فَأَطْرَقْتُ رَأْسِي إِلَى الأَرْضِ حَيَاءً، وَقَدْ خَارَتْ أَطْرَافِي عَيَاءً؛ مِمَّا سُطِّرَ فِي كِتَابِي مِنْ مَخْزِيَّاتِي، وَخَوْفاً مِنْ سُوءِ حِسَابِي وَتَبِعَاتِي.

يَاحَسْرَتِي رَاحَ الْكِتَابُ مِنْ وَرَى ** ظَهْرِي فَلَا مَنَاصَ لِي وَلَا قِرَى[2]

أَحْصَى الْكِتَابُ كُلَّ مَا فَعَلْتُهُ ** حَتَّى بِمَا رَأَيْتُ أَوْ أَخْطَأْتُهُ

أَيَا فَضِيحَتِي وَيَا خُسْرِيَا ** يَا لَيْتَنِي لَمْ أَقْرَ مِنْ كَتَابِيَا

آهٍ: وَمَا دَرَيْتُ مَا حَسَابِيَهْ ** يَا لَيْتَ شِعْرِي أَنْ تَكُونَ الْقَاضِيَهْ

*****

[1] سورة الكهف: 49.

[2] القِرى: إكرام الضيف: والمعنى: لا خلاص لي ولا إكرام.

{مَشْهَدُ}

{الحَوْضُ المَوْرُودْ، وَذَوْدِ[1] الْمُبْتَدِعِ وَالْعَاصِي الْلَّدُودْ}

كُلُّ الْوَرَى قَدْ غَرَفُوا مِنْ حَوْضِهِ ** إِلَّا الَّذِي بَغَى بِسُوءِ جُرْمِهِ
بِفِسْقِهِ، أَوْ حُمْقِهِ، أَوْ كُفْرِهِ ** أَوْ بِدْعَةٌ فِي الدِّينِ لَمَّا يَنْتَهِي[2]

فَبَيْنَمَا أَنَا فِي لَهِيبِ الظَّمَأِ وَالحَرْ، وَقَلْبِي مِنَ الفَزَعِ يَكَادُ يَنْفَطِرْ، رَأَيْتُ جَمْعًا مِنَ النَّاسِ يَزْدَحِمُونْ، وَحَوْلَ رَجُلٍ كَالنُّورِ يَلْتَفُّونْ! فَنَظَرْتُ، فَإِذَا هُوَ أَبْهَى مِنَ الشَّمْسِ فِي ضُحَاهَا، وَأَجْمَلُ مِنَ الأَقْمَارِ فِي عُلَاهَا، قَسِيمٌ، وَسِيمٌ، عَلَيهِ حُلَّةٌ مِنْ نُورْ، تَرَى فِي وَجْهِهِ النَّجَاةَ والحُبُورْ، والسَّنَاء والسُّرُورْ. وَإِذَا بَيْنَ يَدَيْهِ حَوْضٌ مَدَّ البَصَرْ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ الثَّلْجِ وَالدُّرَرْ! فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا الَّذِي مَلأَ الكَوْنَ سَنَاءْ؟ فَقِيلَ: هَذَا مُحَمَّدٌ (ﷺ) سَيِّدُ الرُّسُلِ وَالأَنْبِيَاءْ! هُوَ أَرْحَمُ الخَلْقِ بِأُمَّتِهْ، وَأَطْيَبُهُمْ فِي سِيرَتِهِ وَسَرِيرَتِهْ.

فَهَرَولْتُ نَحْوَهُ وَالغُلُّ فِي عُنُقِي، لَعَلِّي أَجِدُ شَرْبَةً تُطْفِئُ حُرْقَةَ رَمَقِي! أَوْ أَنَالُ شَفَاعَةً تَمْحُو عَنِّي ذُنُوبِي، وَتَسْتُرُ فِي هَذَا المَوْقِفِ عُيُوبِي.

فَمَا إِنْ دَنَوْتُ مِنَ الحِيَاضْ، حَتَّى اعْتَرَضَتْنِي مَلَائِكَةٌ غِلَاظْ.

فَصَرَخْتُ: يَاااا رَسُولَ الله، أَدْرِكْنِي أَنَا مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ! فَإِذَا بِهِ يَقُول: "اتْرُكُوهُ، فَإِنَّهُ مِنْ زُمْرَتِي، فَقَالَتِ المَلَائِكَةُ بِصَوْتٍ يُهِزُّ الجِبَالَ دَكًّا: "إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَاذَا أَحْدَثَ بَعْدَكَ، لَقَدْ بَدَّلَ وَغَيَّرْ،

[1] كلمة «الذَّود» في لغةِ العربِ تحملُ معاني الحمايةِ، والدَّفعِ، والمنعِ.

[2] أي: لم يُرد الانتهاء عن بدعته فمات عليها فمُنع الحوض.

وَفِي المَزَارِعِ تَجَبَّرْ، وَ{إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ}[1].

فَإِذَا بِوَجْهِ النَّبِيِّ(ﷺ) يَعْلُوهُ الإِعْرَاضْ، وَقَالَ بِصَوْتٍ يَمْلأُ نَفْسِي بِالاِتِّعَاضْ: "سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي! بُعْدًا بُعْدًا لِمَنْ خَانَ عَهْدِي!" فَطُرِدْتُ مِنَ الحَوْضِ مَذْمُومًا مَدْحُورًا، عَطْشَانًا مَحْسُورًا[2]، وَصَارَ كَرْبِي بَعْدَ بَيَانِ جُرْمِي مَحْفُورًا! فَقُلْتُ: وَا خَيْبَتَاه! إِذَا طَرَدَنِي أَرْحَمُ الخَلْق، فَمَنْ لِي بِالنَّجَاةِ بَعْدَ إِزْهَاقِ الحَق؟ وَا حَسْرَتَاهْ، عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهْ، وَيَا خَيْبَتَ الْمَسْعَى، إِلَى مَنْ فِي هَذَا الهَوْلِ أَسْعَى؟...

أَبْصَرْتُ حَوْضَ النُّورِ يُجْلِي ظُلْمَتِي ** رَأَيْتُ طَهَ شَافِعاً لِلْأُمَّتِي

هَرَعْتُ أَرْجُو شَرْبَةً تُحْيِي الصَّدَى[3] ** لَكِنَّ ذَنْبِي عَنْ سَنَاهُ قَدْ حَدَا

قَالُوا: لَقَدْ، خَانَ الْعُهُودَ وَالْوِلَا[4] ** وَفِي غَيَاهِبِ الْخَنَى قَدْ هَرْوَلَا

فَارْبَدَّ[5] وَجْهُ الْمُصْطَفَى بَعْدَ السَّنَا ** وَقَالَ: سُحْقاً لِلَّذِي خَانَ الْمُنَى[6]

فَنُحْتُ مَطْرُوداً بِلَا أَيِّ حُبُورْ ** وَالظَّمَأُ الْقَاتِلُ يَكْوِي فِي الصُّدُورْ

*****

[1] المدثر: 18 – 23.

[2] الحسْرُ: الإعياء.

[3] الصَّدَى هو شدة العطش حتى يجفّ الكبد وييبس اللسان. ويُقال رجلٌ "صادي" أي شديد الظَّمأ.

[4] الولا: أصلها: الوِلاءُ: وهي المحبة والنُّصرة.

[5] اربدَّ وجهه: تغيَّر من شدة الغضب.

[6] أردتُ بـ المنى: هو الدِّين.

{مَشهدُ}

{السُّؤَالِ وَالجَوَابْ، وَثِقَلِ الأَوْزَارِ عِنْدَ الحِسَابْ}

أَوْزَانُ حَقٍّ لِلْأَنَامِ انْتَصَبَتْ ** وَفِعْلُ خَلْقِ اللهِ فِيهَا رُصِدَتْ
وَنُودِيَ الْأَبْرَارُ بِاسْمٍ أَطْيَبِ ** وَنُودِيَ الْفُجَّارُ بِاسْمٍ أَخْيَبِي

ولَمَّا طَالَ النَّصَبْ، وَنَالَ مِنِّيَ التَّعَبْ، واشْتَدَّ بِيَ الرُّعْب، وَبَلَغَ مِنِّيَ الْكَرْب، وانْقَطَعَتْ سُبُلِي، وَغَابَتْ عَنِّي حُجَجِي وَعِلَلِي، وَطَالَ الانْتِظَارْ، ولَا يَعْلَمُ أَحَدٌ سَبِيلَهُ أَجَنَّةٍ أَمْ للنَّارْ...
إِذْ بِمُنَادٍ يُنَادِي بِصَوْتٍ رَخِيمٍ جَهُورْ: «هَلُمُّوا لِلْعَرْضِ عَلَى العَزِيزِ الغَفُورْ، وَنَصْبِ المَوَازِينِ لِكَشْفِ مَا فِي الصُّدُورْ!»
فَجَعَلَ المُنَادِي يَدْعُو الخَلَائِقَ بِأَسْمَائِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُنَادَى بِأَطْيَبِ أَسْمَائِهْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُنَادَى بِأَخْبَثِ أَسْمَائِهْ.
فَأَمَّا مَنْ نُودُوا بِأَحَبِّ أَسْمَائِهِمْ، فَيُبَشَّرُونَ بِإِعْزَازِهِمْ، وَيُدْعَوْنَ لِإِكْرَامِهِمْ، فَتَرَى وُجُوهَهُمْ مُسْفِرَةْ، ضَاحِكَةً مُسْتَبْشِرَةْ.

وَأَمَّا مَنْ نُودُوا بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِمْ فَتَرَى وُجُوهَهُمْ، تَعْلُوهَا غَبَرَةْ، وَتَرْهَقُهَا قَتَرَةْ، وَبِسَوَادِ الخِزْيِ غَائِرَةْ.

فَنَادَى مُنَادٍ: أَيَّا صِدِّيقْ، يَا صَاحِبَ الْعِتْقِ العَتِيقْ، والْقَلْبِ الشَّفِيقْ، يَا مَنْ كُنْتَ نِعْمَ الرَّفِيقْ، تَقَدَّمْ وَاشْهَدْ عَلَى الْأُمَمْ، وَأَبْشِرْ بِالْخَيْرِ وَالنِّعَمْ.

فَقُلْتُ عَلَى مَنْ يُنَادُون؟ وَمَا لَهُمْ بِهِ يَتَمَدَّحُون؟

فَقَالُوا: هَذَا صَاحِبُ رَسُولِ اللهْ (ﷺ)، أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقِ الْأَوَّاهْ، أَفْنَى مَالَهْ، وَأَهْلَكَ عُمْرَهْ، حَتَّى لَاقَى رَبَّهْ.

قُلْتُ: فَمَالَهُ غَيرُ مَرْعُوبْ؟ وَلَا يُسْأَلُ عَنِ الذُّنُوبْ؟ أَهُوَ مِنَ الْبَشَرْ؟ أَمْ هُوَ مَلَكٌ مُقْتَدِرْ؟

قَالُوا: بَلْ هُوَ مِنَ الْبَشَرِ وَلَكِنَّهُمْ لَا يُسْأَلُونْ، بَلْ عَلَى الْأُمَمِ يَشْهَدُونْ.

وَرَأَيْتُ كُرْسِيَّ جُلُوسْ، يَبْعَثُ الْهَيْبَةَ فِي النُّفُوسْ، أَعْظَمُ مِمَّا بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءْ، لَيْسَ لِعُلْوِهِ مِن انْتِهَاءْ، وَهْوَ مَرْكُوزٌ فَوْقَ المَاءْ.

قُلْتُ: يَا وَيْلِي مَنْ يَقْدِرُ عَلَى هَذَا الْكُرْسِيِّ الْمَهِيبْ، قَالُوا: بَلْ هُوَ عَرْشُ الرَّحْمَنِ المُجِيبْ.

فَلَمْ أَشْعُرْ حِينَهَا بِمِثْلَ ذَلِكَ الرُّعْب، مِنْ شِدَّةِ الْهَيْبَةِ وَالْعَجَبْ.

فَنَظَرْتُ تَحتَ الْعَرْشِ، فَإِذَا بِعِبَادٍ تَمْشِي بَيْنَ ضِلَالٍ وَكُرُومْ، آمِنُون كَأَنَّهُمْ لَيْسُوا فِي الْيَومِ الْمَعْلُومْ.

وَقَبْلَ السُّؤالْ جَاءَ الجَوابْ، وَلَائِكَ مَنْ كَانُوا للرَّحْمَنِ أَحْبَابْ.

وَرَأَيْتُ رِجَالًا عَلَيْهِمْ تِيجَانٌ مِنْ نُورْ، يَعْلُو وُجُوهَهُم السُّرُورُ والحُبُورْ، فَقُلْتُ بِقَلْبٍ كَسِيرٍ وَمَنْ هَؤُلَاااااء الَّذينَ طَالَت هَيْبَتُهُمُ السَّمَاءْ؟ قَالُوا: يَا مَغْبُون أُولَئِكَ هُمُ الشُّهَداءْ، بَاعُوا للهِ أَنْفُسَهُمْ وَالدِّمَاءْ.

وَرَأَيْتُ أَقْوَامًا يَتقَدَّمُونْ، عَلَى مَنابِرَ مِنْ نُور وَهُمْ مُكْرَمُونْ، وَمِنْ وَرَائِهِمْ خَلْقٌ وَيْكَأَنَّهُمْ مُرْسَلُونْ، فَقُلْتُ وَالْحُزْنُ يَمْلَأُ جَوْفِ، وَاخْتَلَطَ مَعَ هَمِّي وَخَوفِ، أَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُرْسَلُونْ؟

فَقَالُوا: يَا مَحْزُونْ، بَلْ هُمْ أَهْلُ الْعِلْم، وَالْجِدِ وَالْعَزْم، هَدَى اللهُ بِهِمُ الْأُمَمْ، وَعَلَتْ بِرُؤْيَتِهِمُ الْهِمَمْ.

فَقُلْتُ: وَاااا حَسْرَتَاهْ، عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهْ، يَا لَيْتَنِي قَدَمْتُ لِحَيَاتِي، وَأَرْضَيْتُ رَبِّي قَبْلَ مَمَاتِي، لَكُنْتُ الآنَ مِثْلَهُمْ، وَأَسْتَبْشِرُ بِقُرْبِهِمْ.

وَلَكِنِّي أَضَعْتُ الحَيَاةْ، بَينَ رِجْزِ الحَانَاتْ، وعِنَاقِ القَيْنَاتْ، وَتَرَكْتُ الصَّلَاةْ، وَفِعْلَ الْخَيْرَاتْ، حَتَّى فَاتَ مَا فَاتْ.

ثُمَّ تَوالَى النِّدَاءُ بِأَسْمَاءِ أَهْلِ الْصَلَاحْ، وَهُمْ يُبَشَّرُونَ بِالْخَيرِ وَالْفَلَاحْ، كُلٌّ عَلَى حَسَبِ دَرَجَاتِ أَعْمَالِهِمْ، وَمَا قَدَّمُوا فِي سَالِفِ أَعْمَارِهِمْ.

ثُمَّ نُودِيَ عَلَى أُنَاسٍ فَتَقَدَّمُوا مَرْعُوبُونْ، وَمَا بَشَّرَتْهُمُ الْمَلَائكَةُ وَلَا لِحَالِهِمْ يَعْلَمُون، فَأُوقِفُوا أَمَامَ الْعَزِيزِ الدَّيَّانْ، وَسُئِلُوا عَمَّا كَانْ، وَطَالَ بِهِمُ الْوُقُوفْ، وَنَالَ مِنْهُمُ الرُّعْبُ وَالْخَوفْ، واشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الحِسَابْ، حَتَّى تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابْ، وَظَنُّوا أَنَّ مَآلَهُمْ إِلَى النَّارْ، وَأَنَّهُمْ لَنْ يُعْجِزُوا اللهَ بِالْفِرَارْ، وَاسْتَسْلَمُوا لِحُكْمِ الْعَزِيزِ الْجَبَّارْ، ... فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ فِي تَبَارْ[1]، وَلَا مَنْجَى لَهُمْ مِنْ سَعِيرِ النَّارْ، حَتَّى سَمِعتُ صَوْتًا يَقُولْ: أَنَا الرَّحِيمُ الْغَفَّارْ، سَتَرْتُكُمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ خِزْيِ الْعَارْ، وَهَا أَنَا أَغْفِرُ لَكُمْ فِي هَذِهِ الدَّارْ.

ثُمَّ ابْتَدَرَ الصِّيَاحُ بِأَهْلِ المَعْصِيَهْ، يَا وَيْلَتِي هَلْ لِي مِنْ مُنْجِيَهْ، فَنَادَوْا بِرَجُلْ، لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ سِجِلْ، كُلُهَا عَلَى ظَهْرِهِ وَمَا حَمَلْ، فَوُضِعَتْ كُلُهَا فِي كَفَّةْ، والأُخْرَى مَا فِيهَا مِنْ حَسَنَةْ، فَقُلْتُ: يَا لِهَذَا الْمِسْكِينْ، فَقِيل: هَلْ ظَلَمَكَ الْكَاتِبِينْ، فَكَانَ مِنَ الصَّادِقِينْ، وقَالَ: لَا يَا رَبَّ الْعَالَمِينْ، واتَّجَهَ إِلَى الْعَذَابِ المُهِينْ، فَنُودِيَ: أنْ يَا مِسْكِينْ، إِنَّ لَكَ حَسَنَةً وَلَنْ تَكُونَ عِنْدَنَا مِنَ المَظْلُومِينْ، قال: أَيْ ربَّ الْعَالَمِينْ، وَمَا تَفعَلُ حَسَنَةٌ مَعَ هَذَا الجُرْمِ المُبِينْ، فَأُخْرِجَتْ لَهُ بِطَاقَةٌ يَعْلُوهَا السَّنَاءْ، فَأُلْقِيَتْ فِي كَفَّةِ الرَّخَاءْ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ فِي السَّمَاءْ، فَقُلْتُ: مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةْ، فَمَا لَهَا مَعَ السِّجِلَّاتِ مِنْ طَاقَةْ، فَقِيل: إِنَّ ذَا مَعَ فِسْقِهِ كَانَ يُحِبُّ اللهْ، وَكَانَ لَهُ أَوَّاهْ، وَقَالَ يَوْمًا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهْ، خَالِصَةً مِنَ الْقَلْبِ، فَأَنْجَتْهُ مِنْ كُلِّ كَرْبِ.

وَنُودِيَ بِرَجُلَيْنِ، أَوَّلُهُمْ مِسْكِينْ، لَا يَمْلِكُ إِلَّا حَسَنَةً وَاحِدَةْ، والثَّانِي تَنْقُصُهُ حَسَنَةٌ وَاحِدَةْ، لِيَدْخُلَ إِلَى جَنَّةِ الْمُخَلَّدِينْ، فَقَالَ لَهُ الْمِسْكِينْ، خُذْ حَسَنَتِي وَانْجُوا بِهَا مِنْ عَذَابٍ مُهِينْ، فَأَنَا لَا شَكَّ أَنِّي مِنَ الْمُحْضَرِينْ، فَنَادَاهُ رَبُّ الْعَالَمِينْ، أَنَا أَكْرَمُ مِنْكَ وَأَنَا أَكْرَمُ الأَكْرَمِينْ، خُذْ بِيَدِ أَخِيكَ فَإِنَّكُمَا مِنَ النَّاجِينْ.

[1] التَّبار: هو الفساد والدمار، وهو بلاغيًّا في هذه المقامة: الخسران المُطلق.

فَعَجِبْتُ مِنْ رَحْمَةِ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينْ، وَظَنَنْتُ أَنِّي بِهَذَا مِنَ النَّاجِينْ، وَلَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُعذَّبِينْ.

ثُمَّ ابْتَدَرَ الصِّيَاحُ بِأَهْلِ الكَبَائِرِ وَالمُجْرِمِينْ، كَذَا صِيحَ بِمَنْ كَانُوا للصَّلَاةِ تَارِكِينْ، وَللزَّكَاةِ غَيرُ فَاعِلِينْ، وَهُمْ فِي الْأَصْفَادِ مُغَلَّلِينْ، فَسُئِلُوا حَتَّى عَنِ الْعِزّ، وَحَتَى عَنِ الْهَمْزِ وَاللَّمْزِ وَالْغَمْز، فَكَذَّبُوا رَبَّ الْعَالَمِينْ، وَقَالُوا: هَاتُوا لَنَا بِشَاهِدِينْ، فَتَكَلَّمَتْ جُلُودُهُمْ، وَتَكَلَّمَتْ أَيْدِيهِمْ، وَشَهِدُوا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُون، فَأَخَذُوا يَتَضَرَّعُونْ، وَلِرَبِّهِمْ يَرْتَجُونْ، وَلَكِن مَا يَنْفعُ الرَّجَاءْ، بَعْدَ أَنِ انْقَضَتْ أَيَّامُ الْعزّ والْهَنَاءْ، وَظَاعَ الْعُمْرُ فِي الغَيّ هَبَاءْ، فَنَادَى مُنَادٍ أَنْ: {خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ}[1]، فَقُلْتُ: يَا وَيْلَ عِصَام الدِّينْ، أَأَكُونُ مِنَ النَّاجِينْ، أَمْ حَالِي فِي الْعَذَابِ المهينْ؟

وَقْتُ الْحِسَاب:

وَبَيْنَمَا أَنَا فِي ذُعْرِي وَارْتِيَابِي، أَنْتَظِرُ مَوْعِدَ عِقَابِي، إِذَا بِالدَّاعِي يَهْتِفُ بِاسْمِي: «أَيْنَ عِصَامُ الدِّينْ، المُذْنِبِ اللَّعِينْ؟» فَانْخَلَعَ لَهُولِ الاِسْمِ جَنَانِي، وَخَانَتْنِي فِي المَشْيِ سِيقَانِي، وَصَارَ تَعْتِيبِي دَلِيلَ هَوَانِي[2]، وَقِيلَ لِي بِزَجْرٍ رَهِيبْ: اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبْ.

فَنَظَرْتُ، فَإِذَا بِالكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا، وَلَا زَلَّةً فِي الخَفَاءِ إِلَّا أَبْدَاهَا!

فَوَجَدْتُ مَا عَمِلْتُ حَاضِرًا بَيْنَ يَدَيْ، وَفَضَائِحَ الْعُمْرِ كُلِّهِ تُشِيرُ إِلَيَّ، فَرَهِبْتُ مِنْ هَوْلِ الْفَضِيحَةْ، وَلَمْ أَجِدْ مَنْ يُدْلِي لِي النَّصِيحَةْ! فَلَمْ أَعُدْ أَرْتَجِي شَفَاعَةً وَلَا خَلَاصًا، بَلْ صِرْتُ أَطْلُبُ السِّتْرَ فَلَا أَجِدُ مَنَاصًا.

وَإِذَا بِأَفْعَالِي تُنَادَى عَلَى رُؤُوسِ الأَشْهَادْ، وَالخَلَائِقُ تَنْظُرُ إِلَيَّ بِاحْتِقَارٍ وَبِعَادْ! وَالقَائِلُ يَقُولُ لِلْمَلَأِ أَجْمَعِينْ: «هَذَا هُوَ عِصَامُ الدِّينْ، فَعَلَ يَوْمَ كَذَا فِعْلَهُ المُشِينْ، لَمْ يَرْقَبْ حُرْمَةً وَلَا دِينْ، وَلَمْ يَسْتَحِي مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين، وَمَا اعْتَبَرَ الْكِرَامَ الْكَاتِبِينْ!»

---

[1] الحاقة: 29 –32.

[2] التَّعْتِيبُ هو المَشيُ بصعوبةٍ وكأنَّ الشَّخصَ يَقْفِزُ على رِجْلٍ واحدة، وحين تقول "تعتيبُ سِيقاني"، فأنتَ تُصوّرُ ارْتِعاشَ الأطراف وعدمَ قُدرتِها على حَمْلِ الجسدِ من هولِ الموقف.

فَجَعَلْتُ أَنُوحُ حَتَّى جَفَّتِ المَدَامِعْ، وَانْقَطَعَ الصَّوْتُ فِي تِلْكَ المَجَامِعْ! وَنَظَرْتُ، فَإِذَا المَلَائِكَةُ الكِرَامُ مِنِّي مُشْمَئِزُّونْ، وَإِذَا بِجِبْرِيلَ الرَّحِيمِ عَنِّي مِنَ المُعْرِضِينْ! فَيَا لَفَضِيحَتِي فِي مَحْشَرِي، وَيَا لَخَيْبَتِي بَعْدَ تَكَبُّرِي.

فَلَمَّا بَدَأَ السُّؤَالْ، وَاشْتَدَّ الوَبَالْ؛ فَلَمْ يَتْرُكُوا صَغِيرَةً إِلَّا جَلَوْهَا، وَلَا خَفِيَّةً فِي النَّفْسِ إِلَّا تَلَوْهَا! حَتَّى مَا حَدَّثْتُ بِهِ ضَمِيرِي، وَاسْتَتَرْتُ بِهِ عَنْ عَيْنِ نَظِيرِي؛ وَجَدْتُهُ فِي مَحْضَرِي، وَشَهِدَ بِهِ عَلَيَّ مَخْبَرِي.

فَطَالَ المَقَامْ، وَكَثُرَ المَلَامْ؛ فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنْ أَنْ أَبُوءَ بِالِاعْتِرَافْ، بَعْدَمَا عَجِزْتُ عَنِ الِاخْتِلَافْ، فَلَنْ يَنْفَعَنِي هُنَا الْكَذِبْ، فَلَيْسَ لِي مِنَ اللهِ مَهْرَبْ، فَكُنْتُ كُلَّمَا سُئِلْتُ عَنْ مَصِيبَةٍ سَبَقَتْ، أَوْ جَرِيرَةٍ فِي عُمْرِي لَحِقَتْ؛ أَطْرَقْتُ رَأْسِي خَجَلًا، وَتَجَرَّعْتُ غُصَصِي وَجَلًا! فَيَزْجُرُنِي المَلَكْ: أَنْطِقْ يَا هَالِكْ، فَإِنَّ مَوْعِدَكَ مَعَ مَالِكْ، انْطِقْ بِالقَوْلِ الصَّرِيحْ، فَمَا لَكَ اليَوْمَ مِنْ فُسْحَةٍ تُرِيحْ.

فَأَقُولُ: "نَعَمْ فَعَلْتُ"، وَلَيْتَنِي قَبْلَهَا غُيِّبْتُ أَوْ زِلْتُ! فَالخِزْيُ يَمْلَأُ الفُؤَادْ، وَالحَيَاءُ يَكْوِي الكَبِدَ وَالمِهَادْ؛ وَالخَلَائِقُ كُلُّهُمْ سَامِعُونَ لِفَضَائِحِي، وَمُطَّلِعُونَ عَلَى مَقَابِحِي.

فَلَمَّا نُصِبَتِ المَوَازِينُ لِلْفَصْلِ، وَبَرَزَتْ خَفَايَا العَدْلِ؛ أُحْضِرْتُ لِلْعَرْضِ وَأَنَا مِنَ الحَسَنَاتِ عُرْيَانْ، وَمِنَ الأَوْزَارِ وَجِلٌ حَيْرَانْ! فَأَخَذُوا أَثْقَالَ الذُّنُوبِ عَنْ ظَهْرِي، وَوَضَعُوهَا فِي كَفَّةِ المِيزَانِ لِقَهْرِي؛ فَكَانَتْ جِبَالاً لَا تُعَدُّ بِالحُسْبَانْ، وَأَنَا مِنْ هَوْلِهَا فِي اضْطِرَابٍ وَشَنَآنْ[1].

وَجِيءَ لِي بِبَعْضِ الحَسَنَاتْ، وَوُضِعَتْ فِي كَفَّةِ الْمُنْجِيَاتْ، فَعَلَتْ فِي قَلْبِيَ الْبِشَارَاتْ، وَلَكِنْ بَيْنَمَا أَنَا أَرْتَجِي صَالِحَ الخَيْرَاتْ، جَاءَنِي أَهْلُ المَظَالِمِ وَالتَّبِعَاتْ، أَهْلُ القِصَاصِ مِمَّنْ نَالَهُمْ ظُلْمِي، وَأَكَلَتْ حُقُوقَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِجِرْمِي؛ فَأَخَذَ كُلُّ خَصْمٍ مِنْ حَسَنَاتِي قَبْضَةْ، حَتَّى لَمْ يَتْرُكُوا لِي مِنْ خَيْرٍ لَحْظَةْ!

[1] الشَّنَآنُ هو البُغضُ الشديدُ، وهو: في مشهد الميزان، وصفتُ به حال "الاضطراب"؛ لأنَّ مَنْ يرى أوزارَه ترجحُ كالجبال، تقعُ في قلبه شنآنٌ لنفسه (بُغضٌ شديد لما فرَّط)، ويقعُ عليه شنآنُ الخلائق الذين يكرهون قبحَ فِعلِه.

فَلَمَّا فَنِيَ الرَّصِيدْ، وَبَقِيَ الوَعِيدْ، طُرِحَ عَلَيَّ مِنْ سَيِّئَاتِ كُلِّ عَنِيدْ؛ فَزَادَتْ أَوْزَارِي بَعْدَ الِانْكِشَافْ، وَأَنَا أَرْمُقُ النَّارَ مِنْ طَرْفٍ خَفَافْ.

فَنَادَيْتُ بِغُصَّةٍ وَآهْ: أَيْنَ أَنَا مِنْ صَاحِبِ البِطَاقَةِ الأَوَّاهْ؟ فَأَنَا أَيْضاً قُلْتُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهْ!

فَقِيلَ لِي: إِنَّهُ كَانَ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالصَّلَاةْ، وَأَنْتَ لَمْ تَرْعَ لِلهِ حَقّاً فِي سَاعَةِ نَجَاةْ! فَلَمْ تَرْكَعْ لِلهِ خِيفَةْ، وَتَنامُ فِي اللَّيْلِ جِيفَةْ.

فَأَيْنَ أَنْتَ مِمَّنْ لَمْ يَتْرُكْ صَلَاتَهْ، وَأَدَّى الحُقُوقَ وَزَكَاتَهْ؟

فَقُلْتُ: فَمَا بَالِي وَصَاحِبُ الْحَسَنَة وَصَاحِبُ الْحَسَنَاتْ؟ فَقَالُوا: لَمْ يَتْرُكِ الصَّلاةْ، وَغَلَبَ كَرَمُهُ شُحَّهُ، فَجَزَاهُ رَبُّهُ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهْ، كَذَلِكَ فَمَا جَزَاؤُكَ إِلَّا مِنْ جِنْسِ عَمَلِكْ، وَمَا هَلَاكُكَ إِلَّا بِمَا حَاكَ فِيكَ خَطَلُكْ[1].

فَحِينَهَا هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ[2]، وَمَا نَفَعَتْنِي سَهَرَاتِي وَلَا مَالِيَهْ؛ وَبَقِيتُ بَيْنَ كَفَّتَيِ المِيزَانِ مَبْهُوتٌ كَالْمَعْتُوهْ، لَا نَاصِرَ لِي وَلَا جَاهَ أَرْجُوهْ.

ثُمَّ قِيلَ: هَلْ ظَلَمَكَ كَتَبَتِي؟

فَقُلْتُ: لَا، بَلْ هُمْ أَهْلُ التَّثَبُّتِ.

فَقِيلَ: هَلْ لَكَ مِنْ عُذْرٍ أَوْ حُجَّةٌ تَكُونُ لَكَ نَصِيرْ؟

فَقُلْتُ: لَا رَبِّي، وَإِلَيْكَ اليَوْمَ المَصِيرْ.

فَنَادَى المُنَادِي بَيْنَ الْعِبَادْ: غُلُّوهُ بِالسَّلَاسِلِ وَالأَصْفَادْ، وَسُوقُوهُ إِلَى الصِّرَاطِ سَوْقَ القِيَادْ[3].

---

[1] الخَطَلُ: الحُمق: وهو: الفساد في القول: وهو: الخطأ في الرأي.

[2] السلطان: هنا هو الحجة، والمعنى، نفذت حججي التي أحتجُّ بها.

[3] المعنى اللغوي (السَّوق والقَوْد): في لسان العرب، السَّوق يكون من الخلف (دفع الدابة)، أما القَوْد فيكون من الأمام (سحب الدابة بزمامها). والجمع بينهما يعني أن الشخص مُحاطٌ من الجهتين؛ يُدفعُ زجراً من ورائه، ويُسحبُ قسراً من أمامه

عَرْشُ الْإِلَهِ فِي الْمِيَاهِ قَدْ رَسَا ** وَالْحَشْرُ فِي شِدَّتِهِ مَا أَقْسَى

جِبْرِيلُ غَاضِبٌ كَذَا الْأَمْلَاكُ فِي ** غَيْضٍ بِمَنْ عَتَا وَقَلْبُهُ قَسَا

فَالْبَارُ فِي هَوْلٍ يَسِيرُ آمِنَا ** وَالْعَاقُ مِنْ رُعْبٍ يَلُومُ الْأَنْفُسَا

أَتَتْهُمُو صَحَائِفٌ طَاشَتْ لِمَنْ ** أَنْأَى بِتَوْحِيدٍ وَلِلذَّنْبِ نَسَا

حَتَّى دَعَا الْعُصَاةَ لِلْفَصْلِ الَّذِي ** هَدَّ الْجَنَانَ بِالْمَهَابَ أَخْرَسَا

وَانْهَلَّتِ الْعَبْرَاتُ لَمَّا جِيءَ بِالْ ** كُتْبِ الَّتِي لَمْ تَنْسَ ذَنْبًا رُجِّسَا

وَالْخَصْمُ مِنْ هَوْلٍ فَقَدْ تَقَاسَمُوا ** أُجُورَ عَبْدٍ مِنْ غَبَاءٍ أَفْلَسَا

قِيلَ لِمُذْنِبٍ أَبَانَ حَسْرَةً ** الْيَوْمَ لَا نَجْوَى لِقَلْبٍ أُوبِسَا

فَغُلَّ بِالْأَصْفَادِ سَوْقًا لِسَقَرْ ** مِنْ بَعْدِ عُمْرٍ بِالْمَلَاهِي أُتْعِسَا

*****

{مَشْهَدُ}

{الصِّرَاطِ الأَحَدّْ، وَنَجَاةِ الأَبَرّ وَهَلَاكِ الأَرَدّْ[1]}

جِسْرٌ يُمَدُّ فَوْقَ نَارِ الضَّرِمِ[2] ** دَحْضٌ مُزِلَّةٌ لِأَهْلِ الْجُرْمِ

وَالْخَطْفُ بِالْكُلَّابِ حَقًّا مُهْلِكُ ** يَأْخُذُ مَنْ لَمْ يَنْجُ مِنْ ذِي الظُّلَمِ

قُلْتُ: ثُمَّ نَادَى الْمُنَادِي بِأَمْرٍ مَهِيبْ: هَلُمُّوا لِلجَوَازِ فَوْقَ اللَّهِيبْ، فَمُدَّ الصِّرَاطُ فَوْقَ مَتْنِ النَّارْ، فَإِذَا هُوَ أَحَدُّ مِنَ الصَّارِمِ الْبَتَّارْ! تَحْتَهُ نَارٌ سَوْدَاءْ، لَا رَاحَةَ فِيهَا وَلَا مَاءْ، تَجْرِي فِيهَا وِدْيَانُ الْقِطْرِ، وَتَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ، تَخْطِفُ أَهْلَ الْعِصيَانْ، وَكُلُّ مَنْ عَلَا قَلْبَهُ الرَّانْ.

وَعَلَى الْجِسْرِ كَلَالِيبُ مِنْ نَارْ، تَخْطِفُ أَهْلَ الْفِسْقِ وَالْفُجَّارْ، وَخَطَاطِيفُ كَأَنَّهَا شَوْكُ السّعْدَانْ، تَهْوِي بِمَنْ أُمِرَتْ فِي لَهِيبِ النِّسْيَانْ، وَرَأَيْتُ الْجِسْرَ مُظْلِمًا لَا نُورَ فِيهْ، وَلَا لِعَابِرٍ دَلِيلًا يَهْدِيهْ، فَقُلْتُ: كَيفَ السَّبِيلُ لِلْعُبُورْ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ نُورْ، فَقِيلَ: لَا واللهِ بَلْ مَنِ اعْتَادَ التُّقَى وَالذُّخْرِ، كَانَ نُورُهُ بِقَدْرِ عَمَلِهِ عَلَى الجِسْرِ.

ثُمَّ أَخَذَ النَّاسُ يَمُرُّونَ زُمَرًا، كُلٌّ خَلْفَ إِمَامِهِ بَصَرًا وَخَبَرًا! فَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ إِمَامَهُ نَبِيْ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ إِمَامَهُ الْغَوِيْ.

وَكَثُرَتْ عَلَى الصِّرَاطِ الصَّيْحَاتْ، وَاتَّجَهُوا إِلَى اللهِ بِالدَّعَوَاتْ، فَقِيلَ: أَلَمْ تَكُونُ تَدْعُونَ الْأَمْوَاتْ؟ فَادْعُوهُمُ الْيَوْمَ لَعَلَّهُمْ يُجِيبُونْ، أَوْ حَتَّى أَنْفُسَهُمْ يُنْجُونْ.

---

[1] الأرد: هو الهالك المطرود.

[2] الضَّرَم (أو الضَّرَمَة) تعني اشتعال النار وتأججها واتقادها.

وَقَدَّمُونِي عَلَى الصِّرَاطْ، فَمَا سَمِعْتُ إِلَّا شَهِيقَ النَّارِ وَالزَّفَرَاتْ، وَأَنَا وَحِيدٌ فِي تِلْكَ الظُّلُمَاتْ، مَرْعُوبٌ لَا أَخٌ هُنَا وَلَا أَبٌ يَحْمِينِي، وَلَا فَعَلْتُ صَالِحًا يُنْجِينِي، بَلْ رَأَيْتُ أَهْلَ الْخَيْرَاتْ، تُرهِقُهُم السَّفَعَاتْ، فَقُلْتُ: إِنْ كَانَ هَذَا حَالُ مَنْ فَعَلَ الطَّيِّبَاتْ، فَكَيْفَ حَالُ مَنْ أضاعَ العُمْرَ فِي المُوبِقَاتْ.

ثُمَّ نَظَرْتُ حَوْلِي فَمَا وَجَدْتُ لِي إِمَامًا يَهْدِينِي، وَلَا سُنَّةً فِي هَذَا المَضِيقِ تُنْجِينِي! لَمْ أَسْتَنَّ بِسُنَّةٍ وَلَا عِبَادَةْ، إِلَّا كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ وَالشَّهَادَةْ، فَقُلْتُ: عَسَاهَا تَمْحُو عَنِّي الزَّلَّةْ، وَتُنْقِذُنِي فِي هَذِهِ القِلَّةْ.

وَلَكِنْ هَيْهَاتَ لِمَنْ ضَيَّعَ الحُقُوقْ، وَعَاشَ فِي لَيَالِي الْغَيِّ وَالْعُقُوقْ! بَلْ قَدْ أُخِذْتُ بَيْنَ الخَلَائِقِ أَجْمَعِينْ، وَصُفِّدَتْ يَدَايَ إِلَى عُنُقِي كَالمُجْرِمِينْ! فَأَصْبَحْتُ كَكَلْبٍ عَقُورٍ مَقْرُونْ، لَا أَمْلِكُ حَرَاكًا وَلَا سُكُونْ! وَسِقْتُ إِلَى حَافَةِ الجِسْرِ المَنْصُوبْ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى هُوَّةِ المَكْرُوبْ، فَيَا لَهَوْلِ مَنْ يَقِفُ وَحِيدًا بِلَا مَنَارْ، وَقَدْ غُلَّتْ عُنُقُهُ بِسَلَاسِلَ مِنْ نَارْ.

وَأَنَا فِي أَوَّلِ الصِّرَاطِ رَأَيْتُ أَقْوَامًا رِيحُهُمْ كَالمِسْكِ الأَذْفَرْ، مَرُّوا عَلَى الصِّرَاطِ كَلَمْحِ البَصَرْ، لَمْ يُصِبْهُمْ نَصَبٌ وَلَا خَطَرْ، وَآخَرُونَ كَالرِّيحِ العَاصِفِ فِي لُجَّةِ المَطَرْ، جَمَالُهُم يُخَيَّرُ عَلَى الْقَمَرْ، وَآخَرُونَ كَالخَيْلِ المُسْرِعَةِ فِي الأَثَرْ، لَمْ يُصِبْهُمْ مِنَ النَّارِ سَفْعٌ وَلَا شَرَرْ.

وَرَأَيْتُ صَاحِبَ الْوَجْهِ الصَّبُوحْ، وَالْمَقَامِ الْمَمْدُوحْ، النَّبِيُّ الصَّادِقُ الْمُعَلِّمْ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، فِي آخِرِ الجِسْرِ يَبْتَهِلْ يَتَكَلَّمْ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ اللَّهُمَّ سَلِّمْ، فَيَا لَهُ مِنْ رَجُلٍ مَهِيبْ، وَيَا لَقَلْبِهِ الْعَجِيبْ، فِي مَوْقِفٍ يَنْسَى فِيهِ الْحَبِيبُ الحَبِيبْ، هُوَ يُنَادِي: يَا قَرِيبُ يَا مُجِيبْ، أُمَّتِي أُمَّتِي لَا تَخِيبْ...

فَهَنِيأً لِمَنِ اقْتَفَى أَثَرَهْ، واتَّبَعَ نَهْجَهُ وَطَبَّقَ سُنَّتَهْ، وَذَبَّ عَنْ دِينِهِ وَصَحْبِهِ وعِرْضِهْ.

ثُمَّ رَأَيْتُ مَنْ يَمْشِي وَكَلَالِيبُ النَّارِ تَتَخَطَّفُهْ، وَلَهِيبُ الجَحِيمِ بِالسَّفْعِ يَلْقَفُهْ! فَمِنْهُمْ مَنْ نَجَا بَعْدَ العَنَاءْ، فَقَالَ: وَاللهِ مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِثْلَ هَذَا العَطَاءْ، وَشَكَرَ اللهَ وَأَكْثَرَ الثَّنَاءْ.

وَمِنْهُمْ مَنْ هَوَى فِي دَرَكَاتِ الشَّقَاءْ، فِي هَمٍّ وَضِيقٍ وَعَنَاءْ، وَهُمْ فِيهَا يَصْطَرِخُونْ، رَبِّي أَرْجِعُونْ رَبِّي أَرْجِعُونْ!

وَرَأَيْتُ مَنْ نُورُهُ مَدَّ الْبَصَرْ، وَمِنْهُمْ مَنْ نُورُهُ كَالْخِنْصَرْ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَمْلِكُ نُورْ، فَلَا لَهُ إِلَّا الْوَيْلَ وَالثُّبُورْ.

فَلَمَّا حَانَتْ سَاعَتِي لِلْعُبُورْ، وَقَدْ خَانَنِي السَّعْيُ وَانْتَابَنِي الْقُصُورْ، لَمْ أَسْتَطِعْ رَكْضًا وَلَا سَيْرًا لِلنَّجَاةْ، فَحَاوَلْتُ وَحَاوَلْتُ لَكِنْ هَيْهَاتْ، حِينَهَا قِيلَ لِي بِزَجْرٍ: ازْحَفْ يَا كَلْبَ الفَلَاةْ.

فَأَخَذْتُ أَزْحَفُ عَلَى بَطْنِي كَالمَهِينْ، وَالنَّارُ مِنْ تَحْتِي تَمُورُ بِاليَقِينْ! فَإِذَا بِلَهَبِهَا يُنَادِي بِاسْمِي، وَيَطْلُبُ بِالغَيْظِ جِلْدِي وَعَظْمِي! يَا وَيْلَتِي مِنْ أَيْنَ عَلِمَتْ بِاسْمِي؟ وَكَيْفَ رَأَتْ شَكْلِي وَرَسْمِي؟ يَا وَيْلَتِي يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابْ، أَوْ حَصًى أَوْ كلبًا بَيْنَ الْكِلَابْ، يَا لَيْتَنِي لَمْ أُولَدْ، وَبِهَذَا الْوَعِيدِ لَمْ أُوعَدْ، يَا لَيْتَنِي أَعُودُ فَأَعْمَلُ صَالِحًا، يَا لَيْتَنِي أَعُودُ وَلَنْ أَكُونَ طَالِحًا، يَا لَيْتَ وَيَا لَيْتَ وَيَا لَيْتَ...

فَأَخَذْتُ أَزْحَفْ، وَمَا كِدْتُ أَزْحَفْ، حَتَّى صَارَتِ الْكَلَالِيبُ تَتَخَطَّفْ، وَأَخَذَتْ تُمَزِّقُ أَشْلَائِي، وَتَسْحَبُ عَنِّي ثَوْبَ رَجَائِي، وَأَنَا أَصْطَرِخُ مِنَ الْعَذَابْ، فَقِيلَ: مَا زِلْتَ لَمْ تَرَى شَيْئًا مِنَ الْعِقَابْ.

فَانْزَلَقْتُ وَأَنَا مَازِلْتُ فِي حَافَةِ الْبَابْ، وَجَرَّنِي لِقَعْرِهَا الْكُلَّابْ، فَتَشَبَّثْتُ فِي الصِّرَاطِ بِأَسْنَانِي المَوْجُوعَة، وَصَرَخْتُ صَرَخَاتٍ مَوْلُوعَة[1]، وَأَنَا أَسْمَعُ أَجِيجَهَا مِنْ تَحْتِي، وَصُرَاخُ النَّاسِ فِيهَا زَادَ مَقْتِي، فَتَشَبَّثْتُ بِكُلِّ مَا أُوتِيتُ مِنْ قُوَّةْ، عَسَانِي أَنْجُو مِنْ هَذِهِ الْهُوَّةْ، وَبَصَرِي يَرْمُقُ الْكَلَالِيبَ الْخَاطِفَةْ، وَالنَّفْسُ تَرْتَعِدُ مِنَ الرِّيحِ الْعَاصِفَةْ...، وَلَكِنَّ الحساسيكَ غَلَبَتْنِي، وَمِنْ حَافَةِ المَنْجَاةِ لِلْهَاوِيَةِ قَلَبَتْنِي! فَسَقَطْتُ فِي قَعْرِ جَهَنَّمَ سُقُوطَ مَنْ لَا يُقَالْ[2]، وَتَقَطَّعَتْ بِي فِي دَرَكَاتِهَا كُلُّ الْآمَالْ.

---

[1] أصل المادة من "الولع" وهو استعار النار.

[2] مَنْ لَا يُقَالُ: (أو مَنْ لَا تُقَالُ عَثْرَتُهُ) تُستخدم في اللغة العربية للدلالة على الشخص الذي بَلَغَ خَطَؤُهُ أو ذَنْبُهُ حَدّاً لَا مَجَالَ فِيهِ لِلصَّفْحِ أو التَّجَاوُزِ.

مَدُّوا الصِّرَاطَ فَوْقَ مَتْنِ النَّارِ ** مِثْلَ السِّنَانِ الصَّارِمِ الْبَتَّارِ

وَالْخَلْقُ تَمْشِي وَالظَّلَامُ سَاتِرُ ** إِلَّا ضِيَاءَ الذُّخْرِ لِلْأَبْرَارِ

وَالْمُصْطَفَى عِنْدَ الْجَوَازِ مُبْتَهِلْ ** "يَا رَبِّ سَلِّمْ" خِيفَةَ الْأَخْطَارِ

حَتَّى غُلِلْتُ بِالسَّلَاسِلِ الْعُقَدْ ** يَدَايَ مِنْ غَيٍّ وَمِنْ أَوْزَارِي

أَزْحَفُ بِالْهَوَانِ وَالنَّارُ تَقِدْ ** تَشْوِي عِظَامِي فِي لَظَى الْفُجَّارِ

كَلَالِبٌ تَنْهَشُ لَحْمَ مَنْ غَوَى ** حَتَّى اخْطُطِفْ لِقَعْرِ هَذِي النَّارِ

أُصْرُخْ وَصِحْ: فَلَا مَقَالَ لِلْغَوِيْ ** إِلى لَظَى، أَيَا مُجُونِ[1] الضَّارِي[2]

*****

[1] المُجُون هو الاستهتارُ بالقيمِ والحياء، والمجاهرةُ بالمعاصي والآثام دون مبالاةٍ بِلَوْمٍ أو عاقبة.

[2] الضاري: لها معانٍ، من معانيها في بابنا: المشتعل والمؤلم: في وصف النار أو البلاء، يُقال "وجعٌ ضارٍ، وفي البيت الشعري: إلى لضى: أي: هو مقامك، أيا: حرف نداء، المجون، المُستهتر، الضاري: المتجبر، والضاري أيضًا: فيها لفٌّ ودورٌ فتعود على لضى الضاري: أي: المُشتعلة المُؤلمة.

{مَشْهَدُ}

{السَّعِيرِ المُؤْصَدَةْ، وَالنَّارِ المَوْقَدَةِ المُسَلَّطَةْ}

هَذِي السَّعِيرُ الْمُوصَدَةْ قَدْ أُوقِدَتْ ** وَنَارُهَا بَيْنَ الضُّلُوعِ سُجِّرَتْ

هِيَ الَّتِي لِلْهَالِكِينَ سُلِّطَتْ ** فَانْظُرْ لِأَهْوَالٍ عَلَيْهِمْ نُزِّلَتْ

فَلَمَّا زَلَّتِ القَدَمْ، وَسَقَطْتُ فِي هَاوِيَةِ النَّدَمْ، وَراحَتْ ذِكْرَيَاتُ الْهَنَاءِ والنِّعَمْ، تَلَقَّفَتْنِي نَارٌ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةْ، لَهَا تَغَيُّظٌ وَزَفِيرٌ كَالزَّلْزَلَةِ المُحْكَمَةْ! فَوَقَعْتُ عَلَى أُمِّ رَأْسِي فِي قَعْرِهَا، وَذُقْتُ مِنْ أَوَّلِ لَمْسَةٍ حَرَّ سَعِيرِهَا.

فَإِذَا بِجِلْدِي يَنْضَجُ وَيَحْتَرِقْ، وَرُوحِي مِنَ الهَوْلِ تَسْتَبِقْ[1]! وَكُلَّمَا نَضِجَتِ الجُلُودْ، بُدِّلَتْ بِغَيْرِهَا لِيَسْتَمِرَّ العُهُودْ! فَنَادَيْتُ بِالعَطَشِ الَّذِي يَقُدُّ الأَحْشَاءْ، فَأُتِيتُ بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الوُجُوهَ وَالأَعْضَاءْ! فَمَا إِنْ دَنَا مِنِّي حَتَّى سَقَطَ لَحْمُ وَجْهِي فِي الإِنَاءْ، وَسَقَانِيَ الزَّبَانِيَةُ غَسَّاقًا[2] تَقَطَّعَتْ مِنْهُ الأَمْعَاءْ.

ثُمَّ سُحِبْتُ عَلَى وَجْهِي بِالأَغْلَالْ، فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا مِنَ الوَبَالْ! وَأُطْعِمْتُ مِنْ شَجَرِ الزَّقُّومْ، فَمَا هُوَ بِمُغْنٍ وَلَا مَعْلُومْ، بَلْ طَعَامُ الأَثِيمِ الَّذِي يَغْلِي كَالحَمِيمْ! فَجَعَلْتُ أَصْرُخُ: «يَا مَالِكُ مَا خَطْبُكْ، يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكْ!» فَمَا جَاءَنِي الرَّدُّ إِلَّا بَعْدَ دَهْر: إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ فِي هَذَا القَهْر...

[1] "تَسْتَبِق" توحي بأن الروح من شدة الذعر تحاول الفرار والخروج من الجسد بسرعة لتنجو من ألم الحرق، كأنها في "سباق" مع الموت أو الزمن لتتخلص من العذاب.

[2] الغسَّاق: الصَّدِيدُ وَالسَّوَائِلُ: هُوَ مَا يَسِيلُ مِنْ جُلُودِ أَهْلِ النَّارِ مِنْ صَدِيدٍ، وَقَيْحٍ.

فَلَمَّا لَفَحَنِي لَهَبُهَا، وَأَحْرَقَنِي شَهَبُهَا[1]، صَرَخْتُ بِأَعْلَى العَوِيلْ، وَأَنَا فِي أَغْلَالِي الْمُوثَقَةِ نَزِيلْ: «أَيَا زَبَانِيَةَ العَذَابْ، أَلَيْسَ لِي شَفَاعَةٌ تُنْجِينِي مِنَ الْعِقَابْ؟ أَنَا مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ الصَّادِقْ، أَنَا مَنْ شَهِدَ بِالتَّوْحِيدِ فِي الْمَغَارِبِ والْمَشَارِقْ! أَلَا يُغْنِينِي إِيمَانِي، وَقَوْلُ "لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ" بِلِسَانِي؟

فَجَاءَنِي الرَّدُّ كَالصَّرْخَةِ المُرْعِدَةْ، وَكَمَطَارِقِ النَّارِ المُؤْصَدَةْ: «هَيْهَاتَ يَا غَافِلَ الزَّمَانْ، لَوْ تَعَلَّمْتَ لَعَلِمْتَ أَنَّ قَوْلَكَ بِلاَ عَمَلٍ هُوَ الْخُسْرَانْ! فَإِيمَانُكَ الَّذِي لَمْ يُصَدِّقْهُ رُكُوعْ، وَتَوْحِيدُكَ الَّذِي لَمْ تَبَلَّهُ دُمُوعْ، مَا هُوَ إِلَّا حُجَّةٌ عَلَيْك، وَوَبَالٌ يَرُدُّ الشَّفَاعَةَ عَنْ يَدَيْك.

ثُمَّ قَالُوا بِصَوْتٍ يَهُدُّ الجِبَالْ: «مَا حَالُكَ اليَوْمَ بَيْنَ السَّلَاسِلِ وَالأَنْكَالْ، إِلَّا كَحَالِ فِرْعَوْنَ وَهَامَانْ، فِي الْعَذَابِ وَالنِّسْيَانْ! فَذُقْ هَذَا المَقِيلْ، جَزَاءَ مَا ضَيَّعْتَ مِنْ صَالِحِ الْقَالِ والْقِيلْ!» فَسَقَطْتُ فِي حُفْرَتِي بَاكِيَا، وَمِنْ عَظِيمِ جُرْمِي شَاكِيَا، بَعْدَمَا عَلِمْتُ أَنَّ البِرَّ عَقِيدَةٌ وفِعْل، وَأَنَّ النَّجَاةَ دُونَهَا سَبِيلٌ وَعَمَل.

يَا حَسْرَتِي فِي النَّارِ مَغْلُولَ اليَدِ ** مِمَّا جَنَيْتُ مِنْ فِعَالِ الْمُعْتَدِي
ذُقْتُ الْمَقِيلَ[2] بِالسَّلَاسِلِ انْكَوَتْ ** رُوحِي وَبِالزَّقُّومِ نَفْسِي أُطْعِمَتْ
أَبْكِي عَلَى عُمْرٍ تَقَضَّى فِي الْخَنَا[3] ** فَالآنَ ذُقْتُ الْبُؤْسَ مِنْ بَعْدِ الْهَنَا
أَسْعَى لِغَوْثٍ لِيُغِيثَ عَبْرَتِي ** وَالنَّارُ تَأْكُلُ الْحَشَى وَمُهْجَتِي[4]
أَشَدُّ مِنْ حَرِّ السَّعِيرِ سَمْعُ مَا ** يَلْذَذْ بِهِ أَهْلُ النَّعِيمِ تَكْرُمَا

*****

[1] الشَّهَبُ (بِفَتْحِ الشِّينِ وَالْهَاءِ) لُغَةً هِيَ اللَّهَبُ السَّاطِعُ الَّذِي يَغْلِبُ بَيَاضُهُ سَوَادَ النَّارِ، أَوْ هِيَ قِطَعُ النَّارِ الْمُلْتَهِبَةِ.

[2] المَقِيل: مكان القيلولة: المعنى في البيت: بدلاً من أن يكون المقيل مكاناً للراحة من حر الدنيا، أصبح في جهنَّم مكاناً للاكتواء بالنَّار.

[3] الخَنا: الفحش في القول.

[4] المهجة: خالص كل شيء: ومنه النفس والروح، ودم القلب.

{مَشْهَدُ}

{سَمَاعِ أَهَازِيجِ[1] الْحُبُورْ، وَانْقِطَاعِ الأَمَلِ عَنْ مَنَازِلِ السُّرُورْ}

أَسْمَعُ مِنْ خَلْفِ الْجِدَارِ أُنْسَهُمْ ** وَالنَّفْسُ تَبْكِي إِذْ نَأَتْ عَنْ عُرْسِهِمْ[2]

أَهْلُ الْجِنَانِ فِي قُطُوفٍ وَالْجَنَا ** وَاهْلُ الْجَحِيمِ فِي مَدَارِكِ الْعَنَا[3]

وَبَيْنَمَا أَنَا أَتَقَلَّبُ فِي سَعِيرِي، وَأَجُرُّ أَغْلَالَ مَصِيرِي، إِذَا بِي أَسْمَعُ مِنْ بَعِيدٍ ضَحِكَاتٍ عَالِيَةْ، وَهُتَافَاتٍ بِالسُّرُورِ غَالِيَةْ! فَنَادَيْتُ وَالدُّخَانُ يَعْمِي بَصَرِي: أَيْنَ مَنْ يَضْحَكُونَ فِي هَذَا المَحْشَرِ؟

فَقِيلَ لِي بِصَوْتٍ يَقُدُّ الفُؤَادْ: أُولَئِكَ أَهْلُ الجَنَّةِ أَهْلُ الوِدَادْ! هُمْ فِي رِيَاضِهَا يُحْبَرُونْ، وَبِنَسَائِمِ الخُلْدِ يَنْتَشُونْ! يَشْرَبُونَ خَمْرًا مُصَفًّى لَا صُدَاعَ فِيهْ، وَيَرْتَشِفُونَ عَسَلًا وَلَبَنًا فِي مَبَانِيهْ! أَنْهَارُهُمْ تَجْرِي، وَعُيُونُهُمْ تَسْرِي، وَهُمْ فِي أَمْنٍ لَا يَدْرِي كُنْهَهُ إِلَّا اللبِيب.

وَلَوْ أَبْصَرْتَ حَالَ مَنْ فِيهَا، لَرَأَيْتَ وُجُوهًا كَالشَّمْسِ فِي ضَحَاحِيهَا! يَتَّكِئُونَ عَلَى أَرَائِكَ مَرْفُوعَةْ، وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِأَكْوَابٍ مَوْضُوعَةْ، أَمَّا الحُورُ العِينْ، فَهِيَ كَاللُّؤْلُؤِ المَكْنُونْ، حِسَانُ المَنْظَرِ وَالسُّكُونْ! لَا يَمَسُّهُنَّ لَغْوٌ وَلَا تَأْثِيمْ، بَلْ قَوْلُهُمْ: سَلَامٌ سَلَامٌ، فِي مُلْكٍ عِظِيمْ.

لَهُمُ القُطُوفُ الدَّانِيَةْ، وَالحُلِيُّ الغَالِيَةْ، وَعِيشَةٌ فِي نَفْسِهَا رَاضِيَةْ! فَأَيْنَ أَنْتَ يَا شَقِيُّ مِنْ ذَاكَ الْفَخَارْ؟ وَقَدْ أُقِيدَ لَكَ فِي هَذِهِ النَّارِ شَرُّ القَرَارْ.

---

[1] الأهازيجُ (جمعُ أهزوجة) هي الأغاني التي فيها ترنّمٌ وفرحٌ.

[2] العرس: المبيت: تقول عرَّس الرجل هنا، أي: بات ليلته هنا.

[3] قطوف: من القطف، والجنا: من أجني، قطوف الجنا أي: أنهم يسعدون بثمار الجنة بين قطفها أو جنيها.

فَازْدَادَ هَمّي، وَسَالَ لِهَوْلِ الفَرْقِ دَمّي! وَاشْتَدَّ كَرْبِي حِينَ عَلِمْتُ أَنَّ الخَمْرَ الَّذِي رَشَفْتُهُ فِي مَزَارِعِ الغَيّ، كَانَ ثَمَنَهُ هَذَا الحِرْمَانُ مِنْ أَنْهَارِ الحَيّ! فَبَكَيْتُ حَسْرَةً عَلَى نَعِيمٍ رَأَيْتُهُ وَلَمْ أَنَلْهُ، وَعَلَى مَقْعَدٍ فِي الفِرْدَوْسِ ضَيَّعْتُهُ وَلَمْ أَحْمِلْهُ! فَيَا وَيْلَتَاهُ، كَيْفَ بِعْتُ الجَنَّةَ بِلَحْظَةْ، وَاشْتَرَيْتُ الخُلُودَ فِي لَهَبٍ بِنَبْضَةْ.

يَا حَسْرَةً قَدْ قَطَّعَتْ لِي كَبِدِي ** لَمَّا رَأَيْتُ الْخُلْدَ لَيْسَتْ فِي يَدِي

أَهْلُ الْجِنَانِ فِي مَتَاحِفِ الْهَوَى ** وَاهْلُ الْجَحِيمِ فِي مَدَارِكِ الْغِوَى

هُمْ فِي أَمَانٍ لَا يَزُولُ كُنْهُهُ ** أَنَا بِقَيْدٍ لَا أُطِيقُ وَزْنَهُ

بِعْتُ الْجِنَانَ بِالْكَرِيهِ طَعْمُهُ ** وَقَيْنَةٍ قَدْ طَالَ فِيهَا جُرْمُهُ

رَشَفْتُ خَمْرَ الْغَيِّ لَحْظَةً، فَمَا ** نِلْتُ الْفَلَاحَ بَلْ شَرِبْتُ الْحِمَمَا

وَلَا يَنَالُ الْغَوْثَ فِي جَهَنَّمَا * إِلَّا الَّذِي صَلَّى وَقَبْلُ أَسْلَمَا

*****

{مَشْهَدُ}

{الشَّفِيعِ المُشَفَّعْ، وَخَيْبَةِ الظَّلُومِ المُتَسَفِّعْ[1]}

أَتَى الرَّسُولُ النَّارَ يُنْجِي أُمَّتِي ** لَكِنَّهُ لَمْ يَهْتَدِ لِشَامَتِي

فَلَا صَلَاةَ يَهْتَدِي بِهَا إِلَيْ ** وَلَا وُضُوءَ نُورُهُ فِي غُرَّتِي

وَبَيْنَمَا أَنَا فِي سَعِيرِي أَتَلَظَّى، وَبِأَغْلَالِ خِزْيِي أَتَشَظَّى[2]، وَلَهَبُ النَّارِ يَأْكُلُ لَحْمِي فَيَنْبَتِرْ[3]، وَصَدِيدُ الغَسَّاقِ يَغْلِي فِي جَوْفِي فَيَنْفَجِرْ! لَا المَوْتُ يُنْهِي عَنِّي هَذَا الشَّقَاءْ، وَلَا التَّلَاشِي يَمْنَحُنِي بَرْدَ الفَنَاءْ! فَكُلَّمَا انْصَهَرَتْ عِظَامِي، أُعِيدَتْ لِيَذُوقَ العَذَابَ كَيَانِي، وَتَزْدَادَ بِالحَسْرَةِ أَشْجَانِي...،

إِذْ بِنُورٍ يَقْتَحِمُ الظَّلَامْ، وَالنَّارُ تَبْتَعِدُ إِجْلَالًا لَهُ وَإِكْرَامْ فَدَخَلَ النَّبِيُّ (ﷺ) الصَّبُوحْ، ذُو الوَجْهِ المَلِيحْ، وَالقَلْبِ السَّمُوحْ، فَطَفِقَ الشَّفِيعُ يَتَفَقَّدُ الرَّعِيَّة، وَيَسْتَنْقِذُ النُّفُوسَ الزَّكِيَّة، مِمَّنْ غَلَبَتْ سَيِّئَاتُهُمْ حَسَنَاتِهِمْ، وَلَكِنْ بَقِيَتْ آثَارُ السُّجُودِ عَلَامَاتِهِمْ! فَكُلَّمَا مَرَّ بِفَوْجٍ نَادَى: "يَا رَبِّ أُمَّتِي"، فَتَتَسَاقَطُ الأَغْلَالُ بِفَضْلِ رَبِّ الْبَرِيَّة، ثُمَّ بِفَضْلِ الرَّحْمَةِ المَهْدِيَّة، فَأَخْرجَ مِنَ النَّارِ فِئَامًا وَأَقْوَامًا، مِمَّنْ حَقَّ عَلَيْهِمُ العَذَابُ أَعْوَامًا.

فَاشْتَرَقَتْ نَفْسِي لِرُؤْيَاهْ، وَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ مِمَّنْ تَشْمَلِنِي سُقْيَاهْ، وَتُنْجِينِي شَفَاعَتُهْ، وَتُبَلِّلُ ظَمَأَهُ رَحْمَتُهْ! فَجَعَلْتُ أُنَادِي وَالدُّخَانُ يَخْنُقُنِي، وَالسَّعِيرُ عَنْ مَرْآهُ يَحْجُبُنِي: يَا رَسُولَ اللهِ هَا أَنَا ذَا،

---

[1] المتسفع: من السَّفع، أي: سفع النَّار، وهو الذي علت وجهه سمرة النار وتغيرت ملامحه فلا يُعرف.

[2] أتشظَّى: أتفتَّتُ إلى شظايا من شدَّة العذاب.

[3] البتر: هو القطع، والتصوير: أنَّ نار جهنَّم أعاذ الله منها، من شدة حرها لا تكتفي بالحرق، بل تقطع اللحم وتفصله عن العظم، وكأنَّ النار سيف قاطع.

أَنَا بَقِيَّةُ أُمَّتِكَ الَّتِي غَرِقَتْ فِي الأَذَى، يَا رَسُولَ الله، يَا مَلَاذَ المَعِيلْ[1]، أَخْرِجْنِي مِنْ هَذَا الوَبِيلْ[2]!

أَنَا مِنْ أُمَّتِكَ الَّتِي تَرْجُوكْ، وَبِشَهَادَةِ التَّوْحِيدِ أَنْصُرُكَ وَأُتْلُوكْ[3]!

فَنَظَرَ إِلَيَّ بِنَظْرَةٍ مِلْؤُهَا الحُزْنُ وَالإِعْرَاضْ، وَقَالَ بِصَوْتٍ يَزِيدُ فِي أَمْرَاضِي أَمْرَاضْ: لَا أَعْرِفُكَ يَا هَذَا! وَلَا أَرَى لَكَ عِنْدِي مَلَاذًا.

فَقُلْتُ وَالغُصَّةُ تَخْنُقُ البَيَانَ وَالأَنْفَاسْ، وَنَارُ الْحَيْرَةِ عَصَفَتْ بِالبَنَانِ وَالْإِحْسَاسْ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ لَا تَعْرِفُ مَنْ كَانَ بِاسْمِكَ يَشْدُو، وَفِي حُبِّكَ يَرُوحُ وَيَغْدُو؟ كَيْفَ لَا تَعْرِفُنِي وَأَنْتَ نَبِيُّ الزَّمَانْ؟ وَكَيْفَ عَرَفْتَ مَنْ أَخْرَجْتَهُمْ مِنَ النِّيرَانْ؟

فَقَالَ بِحُرْقَةٍ تَقُدُّ الأَحْجَارْ: عَرَفْتُهُمْ بِآثَارِ الوُضُوءِ وَالصَّلَاةِ كَالأَقْمَارْ!

وَأَنْتَ لَا سِيمَةَ لَكَ تَدُلُّ عَلَيْكْ، وَلَا أَثَرَ لِسُجُودٍ بَيْنَ عَيْنَيْكْ! فَلَيْسَ لَكَ عِنْدِي مَعْرِفَةْ، وَلَا لِي فِيكَ عِنْدَ اللهِ تَفْرِقَةْ.

وَأَشَارَ بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ إِلَى غُرَّتِي، وَنَظَرَ إِلَى مَوَاضِعِ سَجْدَتِي، وَقَالَ: أَيْنَ نُورُ الوُضُوءِ الَّذِي بِهِ أَعْرِفُ خِلَّانِي؟ وَأَيْنَ أَثَرُ السُّجُودِ الَّذِي بِهِ أُمَيِّزُ أَعْوَانِي؟ لَقَدْ مَحَتِ الغَفْلَةُ سِيمَاكْ، وَأَطْفَأَ تَرْكُ الصَّلَاةِ سَنَاكْ! فَكَيْفَ أَهْتَدِي إِلَيْكْ، وَقَدْ قَطَعْتَ سَبِيلَ الوَصْلِ بَيْنِي وَبَيْنَكْ؟ فَمَالِي سَبِيلٌ إِلَيْكْ، وَلَيْسَ لِي بِمَا أَفْدِيكْ.

---

[1] المَعِيل: هو الشخص الذي كَثُرَ عِياله (مَن يعولهم) وضاق عيشه، ويُطلق مجازاً في مقامك على الفقير المسكين الذي لا حيلة له ولا ملجأ، وكأن البطل ينادي النبي ﷺ بصفته "ملاذ المحتاجين والضعفاء" الذين انقطعت بهم الأسباب

[2] الوَبِيل: هو الشيء الشديد الثقيل الذي يُخاف وباله وعاقبته. وفي سياق النار، "الوبيل" هو العذاب الغليظ الذي لا يُطاق ثقله.

[3] أتلوك: أي: أتَّبعك، من قوله تعالى: {وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا} أي تَبِعها.

ثُمَّ خَرَجَ ﷺ وَمَعَهُ مَنْ صَلُّوا وَصَامُوا، ولكن أَذْنَبُوا وما أَنَابُوا! فَأُحْرِقُوا حَتَّى طَابُوا[1]، ثُمَّ أُخْرِجُوا بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ، لَمَّا دَفَعُوا جَزَاءَ ذَنْبِهِمْ، وَرَأَيْتُهُمْ أَمَامِي يَخْرُجُونْ، وَهُمْ بِالنَّعِيمِ يَسْتَبْشِرُون، فَازْدَتُّ شُجُونًا عَلَى شُجُونْ[2]...، خَرَجُوا ... وَبَقِيتُ أَنَا فِي دَرَكَاتِي وَحِيدًا، لَا أَرَى لِلْخُرُوجِ عَهْدًا مَدِيدًا! فَلَا صَلَاةَ تَشْفَعْ، وَلَا وُضُوءَ فِي جَسَدِي يَلْمَعْ، بَلْ شَهَوَاتٌ وَغَفَلَاتْ، وَحَسَرَاتٌ بَعْدَ حَسَرَاتْ! فَيَا لَطُولَ كَرْبِي فِي لَهِيبٍ لَا يَنْطَفِئ، وَيَا لَحُزْنَ قَلْبٍ عَنِ النَّجَاةِ يَنْكَفِئ[3].

نَادَيْتُ: يَا طَهَ أَنَا الْمَعِيلُ ** أَخْرِجْنِيَ الْعَيْشُ هُنَا وَبِيلُ[4]

فَقَدْ شَهِدْتُ لَا مَلِكْ إِلَّا الْعَلِي ** وَأَنَّكَ الْمَبْعُوثُ مِنْ عِنْدِ الْوَلِي

فَقَالَ لِي بِنَظْرَةِ الْإِعْرَاضِ: ** "لَا أَعْرِفُكْ" فَزَادَ فِي أَمْرَاضِي

أَيْنَ الْوُضُوءُ كَيْ أَرَى خِلَّانِي؟ ** أَيْنَ السُّجُودُ كَيْ أَفُكَّ الْجَانِي؟

وَمَالَ طَهَ بِالَّذِينَ صَلُّوا ** وَأَوصِدَتْ عَلَى الَّذِينَ اسْتَعْلُوا

*****

[1] طابوا: هي استعارة بليغة لذهاب خبث الذنوب وبقاء طيب الإيمان.

[2] الشُّجُونُ (جمعُ شَجْنٍ أو شَجَنٍ) وهي الأحزانِ التي تَتَشابَكُ في القلْبِ وتتفرَّعُ كأغصانِ الشجرِ المُلْتَفَّة.

[3] ينكفئ: يرتدُّ ويرجعُ، و المَعْنَى: أَنَّ قَلْبَ البَطَلِ كَانَ مُتَطَلِّعاً لِلنَّجَاةِ حِينَ رَأَى نُورَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أَعْرَضَ عَنْهُ، ارْتَدَّ القَلْبُ خَائِباً وَرَجَعَ إِلَى مَكَانِهِ فِي اليَأْسِ وَالعَذَابِ.

[4] أصل: وبيل: من: الوبل: وهو: الثِّقل، والشِّدَّة.

{مَشْهَدُ}

{هَلَاكِ المَوْتْ، وَحَسْرَةِ النَّادِمِ عَلَى الفَوتْ}

هَذَا هَلَاكُ الْمَوْتِ حَلَّ بِالنُّذُرْ ** وَحَسْرَةُ النَّادِمِ مِنْ بَعْدِ الصَّدَرْ[1]

فَالْوَيْلُ لِلْغَاوِي إِذَا نِيلَ الْوَطَرْ[2] ** وَأَقْبَلَ الْخُلْدُ فَمَا مِنْهُ مَفَرْ

وَلَمَّا اسْتَقَرَّ أَهْلُ النَّعِيمِ فِي قُصُورِهِمْ، وَاسْتَقَرَّ أَهْلُ الجَحِيمِ فِي زَفِيرِهِمْ، إِذَا بِأَمْرٍ عَظِيمٍ يَحْدُثُ بَيْنَ الدَّارَيْنِ، وَيَخْطَفُ الْأَبْصَارَ مِنَ الفَرِيقَيْنِ!

إِذْ جِيءَ بِكَبْشٍ أَمْلَحَ لَهُ مَنْظَرٌ مَهُولْ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا الَّذِي بِالذَّبْحِ مَقْتُولْ؟

فَقِيلَ لِي وَالنَّارُ تَأْكُلُ لِسَانِي: «هَذَا المَوْتُ الَّذِي كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُنْقِذَكَ مِنَ الهَوَانِ!»

فَأُوقِفَ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارْ، وَالخَلَائِقُ تَنْظُرُ بِإِجْلَالٍ وَانْكِسَارْ! ثُمَّ ذُبِحَ المَوْتُ فَمَا بَقِيَ لَهُ أَثَرْ، وَانْتَشَرَ فِي مَجْمَعِ الْحَشْرِ الْخَبَرْ.

فَلَمَّا رَأَيْتُ السِّكِّينَ تَمُرُّ عَلَى جِيدِ[3] المَوْت، خَنَقَتْنِي عَبْرَةٌ صَامِتَةٌ بِلَا صَوْت! فَقَدْ كُنْتُ أُعَلِّلُ النَّفْسَ بِأَنَّ العَذَابَ لَهُ نِهَايَةْ، وَأَنَّ المَوْتَ سَيَكُونُ لِي آخِرَ غَايَةْ! فَلَمَّا ذُبِحَ، ذُبِحَ مَعَهُ رَجَائِي، وَانْقَطَعَ بِالفَنَاءِ دُعَائِي.

ثُمَّ ارْتَفَعَ صَوْتُ المُنَادِي يَقُدُّ الحَجَرْ، بِطَامَّة لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرْ :

---

[1] صدرَ: رَعَ: تقول: صَدَرَ الرُّعَاةُ أَيْ رَجَعُوا عَنِ الوِرْدِ (المَاءِ) بَعْدَ أَنْ سَقَوْا مَوَاشِيَهُمْ والمعنى: تحسَّر الخاسرُ بعد رجوعه من الحساب.

[2] الوطر: بلوغ الغاية: وفي سياق البيت: أَنَّ الحَسْرَةَ تَقَعُ حِينَ تَنْتَهِي لَذَّاتُ الدُّنْيَا وَيُقْضَى مِنْهَا المُرَادُ،ويُبلغُ منها الغاية، فَيَجِدُ نَفْسَهُ أَمَامَ بَعدَ هلاك الموت بين الجنة والنار، مقيمًا في النار بِلَا عَمَلٍ يُنجيه من الخلود فيها.

[3] الجيد: في اللغة هو: العنُق، والرقبة.

يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، خُلُودٌ بِلَا مَوْتٍ فَتَنَعَّمُوا! وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ بِلَا مَوْتٍ فَاحْزَنُوا وَتَأَلَّمُوا.

فَكَأَنَّ جُدْرَانَ السَّعِيرِ ضَحِكَتْ لِيَأْسِي، وَأَطْبَقَتْ أَغْلَالُهَا عَلَى أَنْفَاسِي! وَقِيلَ لِي: ذُقْ فَلَا مَوْتَ يُرِيحْ، وَلَا قَبْرَ فِيهِ تَسْتَرِيحْ.

فَصَرَخْتُ صَرْخَةً زَلْزَلَتْ قَعْرَ السَّعِيرْ، وَأَيْقَنْتُ أَنَّ لَا خَلَاصَ لِي وَلَا مَصِيرْ! فَازْدَادَ الحُزْنُ حُزْنَا، وَالكَرْبُ وَزْنَا، وَضَاعَ الأَمَلُ فِي الفَنَاءْ، وَبَقِيَ الخُلُودُ فِي دَرَكَاتِ الشَّقَاءْ! فَيَا حَسْرَةً لَا تَنْقَضِي، وَيَا نَدَامَةً لَا تَمْضِي، فَهَا قَدْ هَلَك الْمَوتُ بَيْنَ يَدِي، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْهَوَانُ الْأَبَدِي.

لَمَّا قَضَى الْمَوْتُ اسْتَحَالَ الرَّجَا ** وَحَلَّ خُلْدٌ مِنْ هَوانٍ وَشَجَا[1]

فَلَا نَبِيَّ يُهْتَدَى لِمَنْ أَضَا ** عَ النَّورَ، لَا سَبِيلَ فِيهَا لِلنَّجَا

*****

[1] كلمة الشَّجَا (بألف مقصورة في الرسم الشعري للتناسب) أصلها من الشَّجَن والشَّجْو، وهي تعني في لغة العرب: الحُزْنُ الشديدُ الذي يَعْتَرِضُ في الحَلْقِ فيَغُصُّ به صاحبه.

{مَشْهَدُ}

{خِطَابِ إبْلِيسَ اللَّعِينْ، فِي قَعْرِ السِّجِّينْ}

قَالَ الْغَوِيُّ الْمُهْلِكُ الْأَفَّاكُ * فِي قَعْرِ نَارٍ وَالْهَوَى فَتَّاكُ
أَنَا الَّذِي غَرَرْتُكُمْ بِالْبَاطِلِ ** وَالْيَوْمَ كُلٌّ فِي الْجَحِيمِ نَازِلِ
أَنْتَ الَّذِي أَغْرَرْتَنَا يَا خَصْمَنَا ** فَارْبُطْ عَلَيْهِ ضِعْفَ مَا نِلْنَا هُنَا

فَبَيْنَمَا الْخَلْقُ فِي زَفِيرٍ وَشَهِيقٍ، وَضِيقٍ مِنْ بَعْدِ ضِيقٍ، إِذَا بِظِلٍّ كَالطَّوْدِ العَظِيمِ يَلُوحْ، لَهُ مَنْظَرٌ تَمُجُّهُ النُّفُوسُ وَقُبْحٌ تَضِيقُ بِهِ الرُّوحْ!

رَأَيْنَا شَخْصاً مَشُوَّهَ الخِلْقَةْ، كَرِيهَ الطَّلْعَةْ، كَأَنَّ رَأْسَهُ جَمْرَةٌ مُتَّقِدَةْ، وَعَيْنَهُ حُفْرَةٌ مُسْوَدَّةْ.

فَارْتَعَدَتِ المَفَاصِلُ مِنْ مَرْآهْ، وَبَكَتِ الأَعْيُنُ لِمَا رَأَتْ مِنْ شَقَاهْ! فَصَاحَ صَيْحَةً تَصَدَّعَتْ مِنْهَا الجُدُرْ، وَنَعَقَ نَعِيقاً أَمَرَّ مِنَ السَّقَرْ! فَقُلْنَا وَالقُلُوبُ فِي الحَنَاجِرْ: مَنْ هَذَا الْكَائِنُ الفَاجِرْ؟ وَمَا هَذَا الصَّوْتُ الَّذِي يُمَزِّقُ المَعَاذِرْ؟[1]

فَإِذَا بِهِ يَرْقَى مِنْبَراً مِنْ سَعِيرْ، وَيَنْظُرُ إِلَيْنَا بِنَظَرٍ حَقِيرٍ كَسِيرْ! فَعَلِمْنَا أَنَّهُ إِبْلِيسُ الَّذِي غَوَانَا، وَبِحَبَائِلِ زَيْفِهِ أَرْدَانَا! فَضَجَّ النَّاسُ بِالعَوِيلِ وَالنَّحِيبْ، وَعَضُّوا عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنْ فِعْلِ هَذَا المُرِيبْ: كَيْفَ اتَّبَعْنَا مَنْ هَذَا شَكْلُهُ القَبِيحْ، وَصَوْتُهُ الَّذِي لَا يُرِيحْ؟ هَذَا الذِي كَانَ لِلْفُجْرِ لَنَا يُبِيحْ.

فَقَامَ إِبْلِيسُ اللَّعِينْ، يَخْطُبُ فِي جَمْعِ الْمَهِينْ، وَقَدْ بَدَتْ عَلَى وَجْهِهِ شَمَاتَةُ الغَرِيمْ، وَتَشَفِّي العَدُوِّ الأَثِيمْ! فَنَعَقَ بِصَوْتٍ يَهُدُّ الرَّوَاسِي، وَيَمْلأُ القُلُوبَ بِالمَآسِي:

---

[1] معاذر: جمع: معذرة: والمراد بها، أنَّ صوت إبليس اللعين: لا يُتوقَّع ممن هذا صوته الاعتذار، كذلك: تمزيق المعاذر يعني وصول البطل لمرحلة "لا اعتذار اليوم"، حيث لا تنفع الندامة ولا تُقبل التبريرات.

إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الحَقِّ فَصَدَقَكُمْ، وَوَعَدْتُكُمْ بِغَيْرِهِ فَكَذَبْتُكُمْ وَأَخَلَفْتُكُمْ! مَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانْ، وَلَا حُجَّةٍ وَلَا بَيَانْ، إِلَّا أَنَّ اللهَ ﷻ أَمَرَكُمْ بِالطَّهَارَةِ فَتَرَكْتُمُوهَا، وَأَمَرْتُكُمْ بِالنَّجَاسَةِ فَأَتَيْتُمُوهَا، فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمُ الغَارِقَةْ، فَمَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ فِي هَذِهِ الصَّاعِقَةْ! لَقَدْ كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي قَبْلَ المَمَاتْ، فَمَا لَكُمُ اليَوْمَ مِنْ نَاصِرٍ وَلَا نَجَاةْ.

فَازْدَادَ بِيَ الْبُؤْسُ وَالتَّعَاسَةْ، حِينَ تَشَفَّى فِينَا رَأْسُ النَّجَاسَةْ! فَيَا وَيْلَتَاهُ مِنْ سِنِينَ تَمُرُّ كَالدُّهُورْ، فِي عَذَابٍ لَا يَعْرِفُ الفُتُورْ! نَارٌ تَفُوقُ نَارَ الدُّنْيَا بِسَبْعِينَ ضِعْفاً مِنَ اللَّهَبْ، وَأَرْضٌ مِنْ نُحَاسٍ مُحْمًى يَصْهَرُ الرُّوحَ كَالذَّهَبْ.

أَمَّا هَوَامُّهَا، فَعَقَارِبُ مِثْلَ الجِمَالِ العِظَامْ، وَحَيَّاتٌ كَأَمْثَالِ الجِبَالِ الضِّخَامْ! تَنْهَشُ اللَّحْمَ وَتَهْرِسُ العَظْمْ، فِي لَيْلٍ لَا يَعْرِفُ النَّوْمَ وَلَا السَّلْمْ! نَقْتَاتُ مِنْ زَقُّومٍ يَقُدُّ الأَحْشَاءْ، وَنَرْتَشِفُ حَمِيماً يَشْوِي الوُجُوهَ وَالأَعْضَاءْ.

فَلَا مَوْتٌ يُرِيحُ مِنَ الأَنْكَالْ، وَلَا صَيْرُورَةٌ إِلَى تُرَابٍ كَالدَّوَابِّ وَالبِغَالْ! حُجِبَتِ المَعَاذِيرْ، وَانْقَطَعَ التَّدْبِيرْ، وَنَادَى المُنَادِي بَيْنَ الأَرْجَاسْ: لَا خَلَاصَ.. لَا خَلَاصَ.. لَا خَلَاصَ...

قَدْ كُنْتُ لِلْفُجْرِ لَكُمْ أُبِيحُ ** وَصَوْتُ غَيِّي عِنْدَكُمْ مُرِيحُ

لَا تَعْذِلُونِي وَاعْذِلُوا نُفُوسَا ** غَرِيقَةً فِي غَيِّهَا عَبُوسَا

لَا سِيَّمَا الطُّهْرُ الَّذِي تَرَكْتُمْ ** وَكُلَّ خُبْثٍ نَجِساً أَتَيْتُمْ

فَمَا أَنَا بِمُصْرِخٍ لَكُمْ هُنَا ** وَلَا نَجَاةَ بَعْدَمَا مَاتَ الْهُنَا

يَا وَيْلَنَا أَنْتَ الَّذِي أَغْرَرْتَنَا ** يَا وَيْلَنَا لَا فِيهِ مَنْ يُقِيلُنَا

حَتَّى غَدَا قَعْرُ السَّعِيرِ بَيْتَنَا ** بِحَبْلِ زَيْفِكَ اللَّعِينِ قُدْتَنَا

*****

{المَقَامَةُ الرَّابِعَة}

{المَقَامَةُ الإِنَابِيَّةْ، فِي بَرَكَاتِ التَّوْبَةِ وَالصِّدْقِ وَالْمَعِيَّةْ}

نُورُ إِنَابَةٍ هَدَى بَعْدَ الضَّلَامْ * مَحَى عَنِ الْقَلْبِ الْجَفَاءَ وَالْكُلَامْ[1]

بِصِدْقِ تَوْبَةٍ نَرَى خَلَاصَنَا * وَجَنَّةُ الْمَوْلَى هِيَا دَارُ السَّلَامْ

قَالَ عِصَامُ الدِّين:

فَبَيْنَمَا أَنَا فِي الْعَذَابِ سِنِينْ، وَأَنَا فِي لَظَى العَذَابِ أَتَقَلَّبْ، وَمِنْ زَفِيرِ النَّارِ وَشَهِيقِهَا أَتَعَذَّبْ، غَابَتْ عَنِّي المَشَاعِرْ، وَأُغْمِيَ عَلَيَّ فِي الْمَغَابِرْ! فَشَكَرْتُ اللهَ فِي سِرِّي، عَسَى الإِغْمَاءُ يُخَفِّفُ مِنْ وِقْرِي، وَيُسْكِنُ لَحْظَةً مِنْ قَهْرِي.

وَلَكِنْ مَا طَالَ بِيَ الذُّهُولْ، حَتَّى فَتَحْتُ عَيْنِي لِلْمَهُولْ! فَقُلْتُ: وَا أَسَفِي! سَأَجِدُ النَّارَ وَالزَّبَانِيَةْ، وَالعَقَارِبَ وَالسَّلَاسِلَ الهَاوِيَةْ! يَا وَيْلِيَ لَنْ يَنْتَهِي هَذا الْعَذَابْ، فَوَلَوْلْتُ وَأَكْثَرْتُ مِنَ الْعِتَابْ.

فَلَمَّا فَتَحْتُ الْعُيُونْ، وَأَنَا مِنْ خَوْفِي كَالْمَجْنُونْ، إِذْ بِي أَرَى نُورًا بَهِيًّا، وَوَجْهًا بِالرَّحْمَةِ نَقِيًّا! فَإِذَا هِيَ أُمِّي تُوقِظُنِي مِنَ المَنَامْ، وَتَقُولُ بِرِفْقٍ: يَا بُنَيَّ، لَا بَأْسَ عَلَيْكَ مِنَ الأَوْهَامْ.

فَارْتَعَدَتْ فَرَائِصِي، وَتَقَطَّعَتْ وَسَاوِسِي! فَعَلِمْتُ أَنَّ مَا رَأَيْتُ لَمْ يَكُنْ حُلْمًا عَابِرًا، بَلْ حَقِيقَةً كُنْتُ فِيهَا صَاغِرًا! لَقَدْ أَرَادَ اللهُ بِيَ الخَيْرَ فَأَنْذَرَنِي، وَقَبْلَ حُلُولِ المَوْتِ بَصَّرَنِي.

فَارْتَمَيْتُ فِي أَحْضَانِ التَّوْبَةِ المُنِيبَةْ، وَدَمْعِي يَنْهَمِلُ عَلَى أَيَّامِي المَعِيبَةْ! وَخَلَعْتُ لِبَاسَ الشَّهَوَاتِ وَالقَيْنَاتْ، وَلَبِسْتُ لِبَاسَ التَّقْوَى وَالبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتْ! فَتَرَكْتُ المَزَارِعَ وَالنُّدَمَاءْ، وَطَلَبْتُ العَفْوَ مِنْ رَبِّ السَّمَاءْ! فَيَا سُبْحَانَ مَنْ أَيْقَظَنِي قَبْلَ الْفَوَاتْ، وَأَهْدَانِي نُورَ الحَقِّ بَعْدَ السُّبَاتْ، وَأَنْذَرَنِي قَبْلَ الرَّحِيلْ، فَيَا لَرَحمَةِ الرَّبِّ الجَلِيلْ.

---

[1] الكُلام، بِضم الكاف: هي: الجراح.

فَانْغَمَسْتُ فِي العِلْمِ النَّافِعْ، بَعْدَ عُمْرٍ مِنَ الجَهْلِ المَانِعْ، وَطَلَبْتُ الهُدَى بَعْدَ طُولِ التَّسَامُعْ! فَتَرَكْتُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا مِنَ الغُرُورْ، وَرَجَوْتُ العَفْوَ مِنَ العَزِيزِ الغَفُورْ! وَاكْتَسَيْتُ ثَوْبَ التُّقَى، وَتَشَبَّهْتُ بِأَهْلِ الْتُّقَى، وَتَصَبَّرْتُ عَلَى الْأَذَى، وَتَشَبَثْتُ بِمَنْ يُحْتَذَى، واتَّبَعْتُ سُنَّتَهْ، وَتَقَفَّيْتُ خُطْوَتَهْ، عَسَانِي أَلْقَاهُ عَلَى الْحَوْضِ الْمَوْرُودْ، وَأَحَضَى بِرِضَا الْغَفُورِ الْوَدُودْ.

فَيَا رَبِّ، قِنِي مَا أَنْذَرْتَنِي، وَثَبِّتْنِي عَلَى مَا بَصَّرْتَنِي، وَاجْعَلْ تَوْبَتِي حِصْنًا مِنَ السَّعِيرْ، وَمَلَاذًا يَوْمَ العَرْضِ الأَخِيرْ، وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونْ، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونْ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمْ، وَرَجَا رَحْمَةَ الْغَفُورِ الْعَلِيمْ.

بَدَا مَصِيرِي فِي الْهُدَى فَأَيْقَظَتْ * عَيْنِي مِنَ الشَّقَى إِلَى رُوحِ السَّلَامْ

فَلُذْتُ بِالرَّحْمَنِ أَرْجُو عَفْوَهُ * وَطُلِّقَتْ دُنْيًا عَلَى مَهْرِ الْقِيَامْ

*****

{المَقَامَةُ الخَامِسَة}

{المَقَامَةُ الوَصِيَّةْ، فِي النَّصِيحَةِ النُّقَيْلِيَّةْ}

هَذِي الْوَصِيَّةُ اعْتَبِرْ بِهَا تَفُزْ ** وَاسْمَعْ لِنُصْحِ مُشْفِقٍ تَرْقَى تُعَزْ

حَكَى عِصَامُ الدِّينِ بنُ إِبْرَاهِيمْ، بَعْدَمَا أَبْصَرَ وَعِيدَ العَاصِي وَوَعْدَ المُؤْمِنِ السَّلِيمْ، قَالَ:

يَا مَنْ قَرَأَ خَبَرِي وَتَدَبَّرْ، وَرَأَى مَا فِي سُطُورِي وَاعْتَبِرْ:

أيَا أَيُّهَا القَارِئُ لِهَذِهِ المَقَامَاتْ، وَالمُبْصِرُ لِمَا فِيهَا مِنَ الْعِضَاتِ والعِبَرَاتْ: هَذَا حَالُكَ إِنْ لَقِيتَ مَوْلَاكْ، وَأَنْتَ غَارِقٌ فِي هَوَاكْ.

فَاعْتَبِرْ بِصَرْعَى المَنُونْ، وَاسْتَيْقِظْ مِنْ حُلْمِكَ المَفْتُونْ، قَبْلَ أَنْ يَنْكَشِفَ المَسْتُورْ، وَيُعْثَرَ مَا فِي القُبُورْ! فَمَا هِيَ إِلَّا زَجْرَةٌ وَاحِدَةْ، حَتَّى تَصِيرَ أَمَانِيكَ بَائِدَةْ، وَأَعْمَالُكَ عَلَيْكَ شَاهِدَةْ.

فَأَفِقْ مِنْ سَكْرَةِ الدُّنْيَا الغَدَّارَةْ، وَفِرَّ إِلَى اللهِ مِنَ الخَسَارَةْ، قَبْلَ أَنْ يَفُوتَ الأَوَانْ، وَيَحِلَّ بِكَ الهَوْلُ وَالهَوَانْ! فَيَحْدُثَ لَكَ مَا قَرَأْتَهُ فِي سُطُورِي، وَتَذُوقَ مَا تَذُوقَ مِنَ الثُّبورِ! فَاللَّبِيبُ مَنْ أَنذَرَتْهُ رُؤْيَا غَيْرِهْ، وَالسَّعِيدُ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَيْرِهْ، وَخَيْرَهُمْ مَنْ أَحْسَنَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهْ.

فَيَا أَيُّهَا المَغْرُورُ بِلَوْنِ السَّرَابْ، وَالمُنْخَدِعُ بِطُولِ الأَمَلِ وَالشَّبَابْ: تَدَبَّرْ حَالَ مَنْ سَبَقَكَ وَمَاتْ، هَلَكُوا عَنْ مَعْصِيَةٍ وَتَقْصيرٍ وَآفَاتْ، فَقَدْ كَانُوا مِثْلَكَ يَبْنُونَ الآمَالَ عَلَى جُرُفٍ هَارْ، وَحَسِبُوا أَنَّ لَيْلَهُم فِي الغَيِّ لَنْ يَعْقُبَهُ نَهَارْ! وَظَنُّوا أَنَّ الْمَوتَ بَعِيدْ، وَأَنَّهُمْ يَتُوبُونَ قَبْلَ الوَعِيدْ، فَذَهَبُوا فِي غَفْلَةٍ وَجُرْمٍ شَدِيدْ، فَمَا نَفَعَهُمُ الْقَيْنَاتْ، وَلَا أَجَارَتْهُمُ السَّهَرَاتْ، فَحِينَهَا يُقْطَعُ الرَّجَاءْ، وَمَا بَدَا لَهُم إِلَّا الشَّقَاءْ.

فَأَفِقْ مِنْ سَكْرَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ أَنْتَ القِصَّةْ، وَتَغَصَّ بِالرَّحِيلِ وَالغُصَّةْ! فَمَا هِيَ إِلَّا نَفْخَةٌ، ثُمَّ صَيْحَةٌ، ثُمَّ حَسْرَةٌ، فَاتَّعِظْ بِمَا قَرَأْتَ فِي هَذِهِ المَقَامَاتْ، وَاجْعَلْ هَذَا الحُلْمَ يَقَظَةً قَبْلَ الفَوَاتْ.

وَاعْمَلْ لِيَوْمٍ تَرَى فِيهِ المَوَازِينَ قَدْ نُصِبَتْ، وَالخَلَائِقَ بِالعَرَقِ قَدْ غُصِبَتْ! وَلَا تَغُرَّنَّكَ ضَحْكَةُ النُّدَمَاءْ، فَإِنَّهَا لَحْظَةٌ وَيَحِلُّ القَضَاءْ.

وَإِيَّاكَ وَتَضْيِيعَ الصَّلَاةْ، فَإِنَّهَا غَدًا لَكَ حَيَاةْ، وَمِنْ دُونِهَا لَا نُورَ لَكَ وَلَا نَجَاةْ.

وَلَا تَكُنْ بَخِيلًا عَلَى الصَّدَقَاتْ، فإِنَّهَا سُدٌّ للنَّارِ وفِيهَا النَّجَاةْ.

وَتَقَرَّب لَهُ بِالصِّيَامْ، فَإِنَّ لَهُ بَابٌ فِي دَارِ السَّلامْ.

وَتَقَفَّرِ الْعِلْمَ وَلَا تَمَلْ، فَإِنَّهُ بِلَا عِلْمٍ لَيْسَ لَكَ عَمَلْ.

وَطَهِّرِ الْقَلْبَ بِالْعَفْوِ وَالتَّوَاضُعْ، وَخَاطِبْ نَفْسَكَ فِي خِلْوَتِكَ وَرَاجِعْ.

وَالْتَزِمِ الْتَّفَكُّرَ فَإِنَّ فِيهِ حُضُورْ، وَقُرْبَةٌ مِنْ رَبٍّ غَفُورْ.

وَإِنْ زَلَلْتَ فَلاَ تَيْأَسَنْ وَتُبْ وأَنِيبْ، فَهَذَا هُو خَلْقُ العَبْدِ، مَعِيبْ.

وَسُنَّةُ الْمُصْطَفَى فِيهَا لَذَّةْ، تَجْعَلُكَ آمِنًا يَوْمَ الرَّجَّةْ.

واسْتَمْسِكَنْ بِدِينِكَ واصْبِر عَلَى الْبَلَاءْ، فَلَيْسَ مِنْ بَعْدِ الصَّبْرِ عَلَيْهِ إِلَّا الرَّخَاءْ.

وصَبْرُكَ أَنْ لَا تَتْرُكَ دِينَكْ، فَاسْمَعْ لِنُصْحِي وَلَا تَتَّبِعْ مِنْ يُشِينُكْ[1].

وَصَاحِبْ أَهْلَ الصَّلاحْ، فَلَيْسَ فِي صُحْبَتِهِمْ إِلَّا الْفَلاحْ.

هَذِهِ وَصِيَّتِي فَالْزَمْهَا لِيَوْمِ الْفَصْلِ الْمُبِينْ، وَاسْتَغْفِرْ لِأَخِيكَ عِصَامِ الدِّين...

[1] كلمة "يَشِينُك" في اللغة العربية هي ضد "يَزِينُك"، وهي تحمل معاني العيب والإساءة والتشويه.

يَا غَافِلاً وَالْمَوْتُ يَقْفُو إِثْرَهُ ** أَفِقْ فَإِنَّ الْقَبْرَ يُذْكِي[1] سِتْرَهُ

فَالْزَمْ مَحَارِيبَ الطَّهَارَةِ الَّتِي * تُنْجِيكَ مِنْ هَوْلٍ بِيَوْمِ الطَّامَةِ

فِي مَا سَبَقْ مَوَاعِظٌ مِنْ مُشْفِقِ * يَرْجُو نَعِيمًا وَالنَّجَا مِنْ مُوبِقِ

فَاسْتَغْفِرُوا لِنَجْلِ إِبْرَاهِيمَ مَنْ * بِسَجْعِهِ يَرْجُو الْخَلَاصَ مِنْ فِتَنْ

*****

[1] كلمة "يُذكي" في اللغة من (ذكا)، ويُقال: "أذكى النار" أي رفع لهبها وأشعلها وأتمَّ وقودها، والمعنى أنَّ القبر سترٌ فهو يذكيه أي يوقده.

اللَّهُمَّ يَا مَنْ بِيَدِهِ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض، وَيَا مَنْ لَا يُعْجِزُهُ عَرْضٌ وَلَا فَرْض، اجْعَلْ هَذِهِ المَقَامَاتِ حُجَّةً لَنَا يَوْمَ العَرْض، وَسَبَبًا لِنَجَاةِ كُلٍّ مِنْهُ كَتَبَهَا وقَرَأَهَا مِنَ السُّخْطِ وَالْخَفضْ.

اللَّهُمَّ كَمَا أَيْقَظْتَ قَلْبِي مِنْ حُلْمِهِ المَذْعُور، فَأَيْقِظْ قُلُوبَ القَارِئِينَ مِنْ سَكْرَةِ الغُرُور! اللَّهُمَّ اجْعَلْ مَا كَتَبْنَاهُ ذِكْرَى تَنْفَعُ المَحْزُون، وَتَهْدِي المَفْتُون، وَتَحْمِي مَنْ لَجَأَ إِلَيْكَ مِنَ الدُّون.

يَا رَبِّ، قِنَا وَقِ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الكَلِمَاتِ أَهْوَالَ المَلَاحِد، وَثَبِّتْ لَنَا أَقْدَامًا عِنْدَ الشَّهَائِد! اللَّهُمَّ لَا تَفْضَحْنَا بِذُنُوبِ الخَلَوَات، وَلَا تَمْنَعْنَا شَفَاعَةَ سَيِّدِ السَّادَات، وَاجْعَلْ خِتَامَنَا عَلَى أَحْسَنِ الحَالَات.

اللَّهُمَّ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ العِبَرَ وَاعْتَبَر، فَنَوِّرْ قَبْرَهُ إِذَا اسْتَتَر، وَبَيِّضْ وَجْهَهُ يَوْمَ النَّشَر، هُوَ مَنْ كَتَبَ هَذَا الْخَبَرْ.

اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ لَنَا فِي النَّارِ مَقِيلًا، وَلَا لِلشَّيْطَانِ عَلَيْنَا سَبِيلًا، وَاجْعَلْ قَوْلَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» لَنَا أَنِيسًا وَدَلِيلًا.

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِكَاتِبِهَا وَقَارِئِهَا وَنَاشِرِهَا، وَاجْعَلْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ هِيَ مَآلَهُمْ وَمصِيرَهُمْ! يَا حَيُّ يَا قَيُّوم، بِرَحْمَتِكَ نَسْتَغِيثُ، فَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينْ، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِين.

*****

{الفهرس}

بَيْنَ يَدَيِ الْمَقَامَات: مِنْ مَلَاهِي الْأَدَب، إِلَى مَوَاعِظِ التَّلَبُّب 11

مقدمة 15

مُلَاحَظَةٌ مَنْهَجِيَّةٌ: فِي تَأْصِيلِ المَقَامَةِ المَرْوِيَّةْ 19

الْمَقَامَةُ الْأُولَى: المَقَامَةُ الغَرَّارَةْ، فِي فِتْنَةِ الدَّارِ الغَدَّارَةْ 21

الْمَقَامَةُ الثَّانِيَةُ: المَقَامَةُ اللَّحدِيَّةْ، فِي أَهْوَالِ البَرْزَخِ وَالوَحْدِيَّةْ 25

مَشْهَدُ: قَرْعِ النِّعَالْ، وَانْقِطَاعِ آخِرِ حِبَالِ الوِصَالْ 27

مَشْهَدُ: مُنْكَرٍ وَنَكِيرْ، وَدَهْشَةِ العَبْدِ عَنِ التَّذْكِيرْ 29

مَشْهَدُ: نَفْخَةِ الِارْتِيَاعْ، وَقِيَامِ الخَلَائِقِ لِلِاجْتِمَاعْ 32

الْمَقَامَةُ الثَّالِثَةُ: المَقَامَةُ الحَاشِرَةْ، فِي كَشْفِ مَسْتُورِ الآخِرَةْ 34

مَشْهَدُ: الزَّجْرَةِ الوَاحِدَةْ، وَالخُرُوجِ لِلْقِيَامَةِ الشَّاهِدَةْ 36

مَشْهَدُ: القَاعِ الصَّفْصَفْ، وَالحَشْرِ إِلَى المَوْقِفِ الأَخْوَفْ 38

مَشْهَدُ: قِرَاءَةِ الكِتَابْ، وَدَهْشَةِ العَبْدِ عِنْدَ الحِسَابْ 40

مَشْهَدُ: الحَوْضُ المَوْرُودْ، وَذَوْدِ المُبْتَدِعِ وَالعَاصِي اللَّدُودْ 42

مَشهدُ: السُّؤَالِ وَالجَوَابْ، وَثِقَلِ الأَوْزَارِ عِنْدَ الحِسَابْ 44

مَشْهَدُ: الصِّرَاطِ الأَحَدّْ، وَنَجَاةِ الأَبَرّ وَهَلَاكِ الأَرَدّْ 51

مَشْهَدُ: السَّعِيرِ المُؤْصَدَةْ، وَالنَّارِ المَوْقَدَةِ المُسَلَّطَةْ 55

مَشْهَدُ: سَمَاعِ أَهَازِيجِ الحُبُورْ، وَانْقِطَاعِ الأَمَلِ عَنْ مَنَازِلِ السُّرُورْ 57

مَشْهَدُ: الشَّفِيعِ المُشَفَّعْ، وَخَيْبَةِ الظَّلُومِ المُتَسَفِّعْ 59

مَشْهَدُ: هَلَاكِ المَوْتْ، وَحَسْرَةِ النَّادِمِ عَلَى الفَوتْ .....62.....

مَشْهَدُ: خِطَابِ إبْلِيسَ اللَّعِينْ، فِي قَعْرِ السِّجِّينْ .....64.....

المَقَامَةُ الرَّابِعَة: المَقَامَةُ الإِنَابِيَّةْ، فِي بَرَكَاتِ التَّوْبَةِ وَالصِّدْقِ وَالْمَعِيَّةْ .....66.

المَقَامَةُ الخَامِسَة: المَقَامَةُ الوَصِيَّةْ، فِي النَّصِيحَةِ النُّقَيْلِيَّةْ .....68.....

الفهرس .....73.....

كتب للمؤلف .....75.....

*****

{كتب للمؤلف}

مجموعة أصول التفسير:

1 – تمهيد البداية في أصول التفسير (الجزء الأول)

2 – تمهيد البداية في أصول التفسير (الجزء الثاني)

3 – معية الله تعالى

4 – التفسير والمفسرون

5 – ورقات في أصول التفسير

6 – المتن الحبير في أصول وكليات وقواعد التفسير.

مجموعة الحديث والسنة:

7 – المنة في بيان مفهوم السنة

8 – المختصر في وصف خير البشر ﷺ

9 – قصة الإسلام من سيرة خير الأنام ﷺ

10 – الأربعون في فضل الصحابة وخير القرون

11 – الأربعون الزجرية في أحاديث زجر النساء

12 – الأربعون الشفائية

13 – طريق الأبرار 20 حديثا تملؤها الأسرار

14 – الترويح والملح في شرح نظم غرامي صحيح لابن فرح

15 – أذكار المسلم وما يتعلق به من النوافل

16 – جزء نوافل الأقوال والأفعال المنتقى من كتب الرجال

17 – الوصية بشرح الأربعين الزجرية

18 – عدالة التابعين المطلقة

19 – قرَّة العين في عوالي عصام الدين

20 – البداية في علم الرواية (علم الحديث)

21 – قصيدة يا لائمي من غير ما برهانِ (نَظم الشمائل النبوية)

مجموعة علم الأصول:

22 – الخلاصة في علم الأصول من حد الفقه (الجزء الأول)

23 – الخلاصةفي علم الأصول من حد الفقه (الجزءالثاني)

24 – الخلاصة في علم الأصول من حد الفقه (الجزء الثالث)

25 – الخلاصة في علم الأصول من حد الفقه (الجزء الرابع)

26 – الخلاصة في علم الأصول من حد الفقه (الجزء الخامس)

27 – الخلاصة في علم الأصول من حد الفقه (الجزء السادس)

28 – التهذيب والتوضيح في شرح قواعد الترجيح

29 – النسخ عند الأصوليين، دراسة مقارنة

مجموعة الفقه:

30 – الأذان

31 – الحجاب

32 – الديوث

33 – حجة الوداع من صحيح مسلم مع الشرح

مجموعة علوم اللغة:

34 – البداية في الإملاء والترقيم

35 – باب الكلام من النحو

36 – باب الإعراب من النحو

37 – فتح الرب السميع في علم المعني والبيان والبديع

38 – الإيجاز في الحقيقة والمجاز

39 – مختصر التحفة السنية بشرح المقدمة الآجرومية

40 – شرح مثلث قطرب

41 – مقامات النَّقِيلي، في الاستدعداد للرَّحيلي، من دار القال والقيلِ

مجموعة العقيدة:

42 – منظومة نواقض الإسلام

43 – الإيمان والعمل الصالح

44 – المتن الأسنى في أسماء الله الحسنى

45 – القول التين في الضروري من أصول الدين ج 1

46 – القول التين في الضروري من أصول الدين ج 2

47 – القول التين في الضروري من أصول الدين ج 3

مجموعة الرقية والطب البديل:

48 – الخطوات الأولية في الأعشاب الطبية

49 – الزيوت العطرية علاج وجمال

50 – التدليك علاج واسترخاء

51 – في كل بيت راق (في ثوبه الجديد)

52 – حقيقة الإصابات الروحية

53 – المفرد في علم التشخيص

54 – الاشتياق لرقية الأرزاق

55 – أسرار الترياق من مختصر في كل بيت راق

مجموعة الآداب:

56 – الإنفاق في القرآن الكريم

57 – التوكل على الله تعالى

58 – التوبة في القرآن الكريم

59 – العلم النافع

60 – العقل في القرآن الكريم

61 – ذكر الله تعالى

62 – قصيدة: أنين التائبين

وغير ذلك...

والكثير من المقالات منها:

– درء التعارض بين نصوص الكتاب، أو بين الكتاب والسنة، أو بين السنة (ورقات)

– الإمام ابن أبي ذئب (ورقات)

– حكم الإكرامية

وغير ذلك... تجدونها على شبكة الألوكة وغيرها...

Gmail : Nguiliissameddine@gmail.com